ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١–٢ ، السنـــــة : ٥٠

المحرم – صفر ١٤٤٧هـ ، يوليـو– أغسطس ٢٠٢٥م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ١٢٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- الأخلاق أساس الأعمال — التحرير — ٣

كلمة العدد

- من أساليب القرآن في الدعوة والإرشاد — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- الصلاة تعيد برمجتنا — الأستاذ أحمد بسام ساعي — ١٨
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند: ديباجة — السيد محبوب الرضوي رحمه الله — ٢٣
- صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — أبو عائض المباركفوري — ٣٠
- ثلاث ليال في عاصمة تكنولوجيا المعلومات الهندية — التحرير — ٥٤

إلى رحمة الله

- الوستانوي في ركب الخالدين — رئيس التحرير — ٦٦
- المحدث الشيخ محمد عاقل المظاهري رحمه الله — أبو عاصم جميل القاسمي المباركفوري — ٨٩

فهرس مقالات

- فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي»

من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٦هـ — ترتيب الأستاذ عمار عزيز العثماني — ٩٢

إشراقة

- أنواع من الاختبارات — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ١٠٠

كلمة المحرر

الأخلاق أساس الأعمال

في الوقت الذي يتهافت فيه البشر على المادة والمعدة، ومبلغ سعي معظمهم ما يشبع بطنه ويقضي نهمته، ويلبي حاجته، وأصبح كثير من المعنيين بصلاح المجتمعات البشرية يولون الأعمالَ كل تركيز على حساب الأخلاق، والحق أن الأخلاق هي أساس الأعمال، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر؛ فلايصدر عن المرء من الأعمال إلا بقدر ما ينطوي عليه من الأخلاق ومادتها. فمن انطوى قلبه على مادة الشجاعة والصرامة والبسالة والشهامة وخُلقِها صدر عنه من أعمال الإقدام والإقبال والمواجهة و المضي قدمًا بقدره، ويخاطر بنفسه وماله غير هياب ولا وجل. ومن اتصف بالجبن والضعف صدرت عنه أفعاله من النكوص والإحجام، والتولي، والإعراض، ويصاب بالهلع والذعر والروع عند ملاقاة الأقران، ومواجهة الأنداد، قال الشاعر:

ولي قلب سقيم ليس يصحو ..... ونفس ما تفيق من الهلاع

ومن اشتمل على مادة السخاء والجود وخلقه، صدر عنه العطاء والإنفاق، وحمل الكلِّ، والعون على النوائب. وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوفر الناس حظًّا من خلق الجود والسخاء، فكان أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، وكان يعطي عطاء ما يخاف الفقر. وقدم عليه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سبعون ألف درهم - وهو أكثر مال ما أتى به أحد قط - فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها. وأما إذا جبل المرءُ على مادة البخل وخصلته؛ فإنه يمسك و يجعل يده مغلولةً إلى عنقه، ويمنع الحق صاحبه، ويضنُّ بالخير. فالقوة الدافعة إلى الأعمال و الأفعال هي الأخلاق، التي لاتفعل فعلها إلا إذا تبينت طريقها. والعلم هو الذي يبين لها الطريق و يهدي السبيل ويريها، فمدار الكمالات أمران اثنان لاثالث لهما: العلم والأخلاق. فالعلم يهدي السبيل، ويريها؛ والأخلاق تدفع إلى انتهاجها وسلوكها واتباعها.

وأوضح مثال على ذلك القطار، فقاطرته حين تتحرك وتسير على سككها سحبت معها عرباته الحديدية التي تزن الآلاف ومئات الآلاف من الأطنان. ولكن تحرك القاطرة وسيرها إلى محطتها ومنزلها يتطلب أمورًا منها: نصب السكك الحديدية التي تنزل عليها القاطرة، ومنها: وجود قوة البخار- حين كانت القطارات تسير بقوة البخار- أو قوة البنزين أو قوة الكهرباء - كما عليه الحال اليوم-. فالإنسان مثل القاطرة يتطلب أمرين اثنين: الأول: وضوح الطريق له، ورؤية الهدف و المنزل، والثاني: قوة السير والمضي قدمًا، فيمشي سويًّا على الطريق، ليصل إلى هدفه المنشود. وهذا ما يسمى بالصراط المستقيم، والشريعة الحق، ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فإن عُمِّيَ عليه الطريق أو وضح له، ولكن عجز عن التحرك والمشي، فإنه لايقدر عل السير قدمًا إلى هدفه. وهذه القوة الباطنة هي قوة الأخلاق، وهي التي تدفع المرء إلى سلوك الطريق المستقيم، والوصول إلى الهدف المنشود. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأربعاء: ١٤٤٦/١١/٢٢= ٢٠٢٥/٥/٢١م)

من أساليب القرآن في الدعوة والإرشاد

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، أنزله هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، يرشدهم إلى ما فيه صلاح دنياهم ودينهم، يأمرهم المعروف وينهاهم عن المنكر، ويقرن ذلك بقصة من قصص الأمم السابقة في إشارة إلى أن كل من أبى امتثال ما أمر الله تعالى من المعروف والانتهاء عما نهاه من المنكر كان مصيره مثل ما صار إليه الأمم التي سرد قصصها القرآن الكريم عبرةً وعظةً لهم. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦]. ونَبَّه القرآن الكريم في آيات كثيرة على أن معصية الله تعالى والخروج على طاعته مما يجلب الحرمان والهلاك والدمار والعقوبة عاجلًا أو آجلًا، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠].

ويتجلى هذا في القصص القرآنية بوضوح، نتعرض لبعض الأحكام وما يتعلق بها من القصص:

أمر الله تعالى بإيفاء الكيل والوزن ونهى عن التطفيف قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء:٣٥].

ولم يكتف بهذا الأمر والنهي؛ بل ساق القرآن الكريم قصة من قصص الأمم السابقة أبت امتثال أمر الله تعالى والانتهاء عما نهاه من التطفيف، وهي قصة قوم شعيب عليه السلام، الذين جمعوا إلى الشرك والكفر بالله تعالى التطفيفَ وبخس الكيل والوزن، فكان من دعوة شعيب عليه السلام لهم إلى إيفاء الكيل والوزن أيضًا، قال تعالى حكايةً عن شعيب:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن

رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

وجاءت آيات مماثلة في كل من سورة هود والشعراء أيضًا، وكان من ديدن قوم شعيب أنهم كانوا يقعدون بكل صراط يصدون الناس عن دين الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦].

فأبى القوم وبغوا وطغوا وسخروا من شعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

وكان شعيب عليه السلام يكثر من الصلوات، وكان قومه يتغامزون ويتضاحكون، فجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم والاستخفاف بصلاته، «وأرادوا أنّ هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وأنّ مثله لايدعوك إليه داعي عقل، ولا يأمرك به آمر فطنة، فلم يبق إلا أن يأمرك به آمر هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال و الأفعال».

فكيف كان مصير القوم؟ إنه نفس العاقبة والسنة الجارية في الأمم الكافرة والناموس الجاري والقانون الموحد في الذين خلوا من قبلهم، إنهم ذاقوا وبال أمرهم، وتجرعوا كأس الهلاك والدمار من جراء استهزائهم واستخفافهم بالرسول ورسالته وتوجيهاته وإرشاداته، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٠-٩١].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٤-٩٥].

وقال تعالى في أصحاب الأيكة: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨٩-١٩٠].

لنأخذ مثالًا آخر من هذا القبيل: أمر الله تعالى بشكر نعمته، وحذر من كفرانها والجحود بها والاغترار بسلطان المال والجاه، في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨].

والآيات في وجوب الشكر لله تعالى والحث عليه والترغيب فيه كثيرة جدًّا، ثم حكى الله تعالى قصة قارون لتكون نكالًا لمن يكفرون بالله تعالى وينكرون نعمه سبحانه وتعالى، فقد أعطاه الله تعالى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، واغتر بسلطان المال، فبطر معيشته، وفرح بزخارف الدنيا فرحًا شغله عن الشكر فيها والقيام بحقها، إنه ادعى أن عنده علمًا استحق به أن يكون صاحب ذلك المال وتلك النعمة وليس فضلًا من الله تعالى ونعمةً منه، يقول الله تعالى في قصته:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٨].

فماذا كان مصيره؟ يقول الله تعالى في إهلاكه:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨١-٨٢]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

«وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾. وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول: لولا أنه يستحق ذلك لما أعطي. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾. يقول تعالى مخبرًا عن قارون: إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمل باهر، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي، قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو حظ وافر من الدنيا. فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ﴾ أي: جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون.

وجاء النهي الشديد عن الاستكبار والطغيان في آيات كثيرة من القرآن الكريم، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص:٧٥-٧٨].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢].

وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه:٨١].

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا النهي الشديد عن الاستكبار والطغيان؛ بل قرنه بقصص الأمم التي استكبرت وذاقت وبال أمرها في الدنيا، وذلك ليكون عبرةً لمن اعتبر، قال تعالى في قصة عاد وهلاكها: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

فكان استكبار قوم عاد وتبجحها بقوتها وسلطانها مما جلب عليهم النقمة الأبدية والدمار الشامل ونكالًا يدوم ما دامت السماوات والأرض.

والاستكبار: المبالغة في الكبر، أي كانوا يتعاظمون على أهلها ويزدرون بهم، وخص هنا بالذكر الاستكبار؛ لأنه هو الذي صرفهم عن اتباع الرسول وعن توقع عذاب الله تعالى. والكبر من خصائص الله تعالى وميزاته لايشاركه فيه أحد غيره. فروى أبوداود في سننه [برقم:٤٠٩٠] عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «قال الله تبارك وتعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار».

والبشر مهما أوتي من المغريات بالكبر من القوة والسلطان والمال والجاه لايبلغ بها مبلغًا يخلو فيه عن النقيصة والشين. وقد غر هؤلاء قوة أجسادهم، وعزة نفرهم حتى ظنوا أنهم هم الغالبون ومن عداهم مغلوب مهزوم لايقوم له قائم في مواجهتهم، وبلغوا من القوّة أن الرجل منهم كان ينزع صخرة من الصخور فيقتلعها بيده، فقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فأنكر عليهم هود عليه السلام-علاوة على شركهم- استكبارهم وطغيانهم، فأثار ذلك حفيظتهم؛ فقد كانوا معجبين بقوتهم وعدتهم وعتادهم في الدنيا،فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

وقصة أخرى من قصص الأمم المستكبرة العاتية العالية قصة فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى

فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴿٣٩﴾﴾ [القصص:٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٨].

فاستكبر فرعون في الأرض وعتا وبغى على أهلها، واستخف قومه فأطاعوه، و كان يدعي لنفسه الربوبية، قال تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨].

وقال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات:١٧-٢٤].

وقد غره ما أعطاه الله تعالى من الزينة والمال في الحياة الدنيا ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨].

وقال تعالى حكايةً عنه وهو يتبجح به على قومه ويراه فضلا له على غيره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف:٥١-٥٤].

فلم يغنِ فرعون وملأه ما كانوا عليه من المال والزينة، وصاروا مصير الأمم السابقة في الهلاك والدمار، فكانوا عبرةً لمن اعتبر، وقد أشارت إلى عاقبتهم الوخيمة عدد من الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٥-٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٣٨-٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٣٩-٤٠].

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(من سورة الأعراف)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾

جاء في آية أخرى من القرآن الكريم بعث شعيب عليه السلام إلى أصحاب الأيكة، فإن كان أصحاب مدين وأصحاب الأيكة أمة واحدةً، فبها ونعمت، وإن اختلفتا، فإنه كان بعث إلى الأمتين، وكانتا تنقصان الكيل والميزان. فنبَّه شعيب عليه السلام بكل قوة – علاوة على الدعوة العامة إلى التوحيد وغيره- إلى ضرورة إصلاح الشؤون الاجتماعية ورعاية حقوق العباد، كما سيأتي في الآيات التالية. وكان يطلق على شعيب عليه السلام لمنتهى فصاحته «خطيب الأنبياء».

فائدة: أي قد تبين دليل صدقي، فاقبلوا ما أنصحكم به، واحذروا العواقب الوخيمة التي أنبهكم عليها.

فائدة: وتبلغ رعاية حقوق العباد وإصلاح المعاملات - التي قلما يعتني بها حتى صلحاء زماننا- من الأهمية مكانًا جعله واجبًا خاصًّا لبعض الأنبياء الأجلاء، وأهلكت قوم ضيعوها. وهذه الآيات نبهت على لسان شعيب عليه السلام على أن إضرار الناس – ولو كان تافهًا- وزرع الفساد في الأرض بعد أن إصلاح أمرها، سواء كان بالشرك والكفر أو القتل بغير حق والنهب ونحوها، ليس من ديدن أحد من المؤمنين.

وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾

والقعود على الطرقات كان لسببين: أخذ مال المارة ظلما بالتهديد، وصرف المؤمنين عن التوجه إلى شعيب، وصد الناس عن اعتناق دين الله تعالى،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

والطعن في الدين الإلهي، وانتقاصه وعيبه.

أي كانوا أقل عددًا وثراءً، وقد زادكم الله تعالى فيهما، فازددتم عددًا وثراءً، فاشكروا الله تعالى على نعمه هذه، ولايتأتى ذلك إلا بمعرفة حقوق الله وحقوق العباد، والسعي لإصلاحها، وعدم الاغترار بهذه النعم؛ بل الخوف من أخذ الله تعالى واضعًا في الاعتبار مصير الذين سعوا في الأرض فسادًا.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

أي إن كنتم لاتجتمعون على الإيمان بما جئت به إليكم مصرين على معارضته، فاصبروا قليلا، حتى يأتي الفصل من السماء بيني وبينكم.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

العود: الرجوع إلى الشيء بعد الخروج منه. وهذه الكلمة صادقة حقيقة على أتباع شعيب عليه السلام، فإنهم خرجوا من الكفر ودخلوا في الإسلام، وأما شعيب عليه السلام نفسه فلايتصور فيه -والعياذ بالله- أن يكون على ملة الكفار أولا، ثم أسلم، فلابد من أن نقول: إن الخطاب بالنسبة له جاء تغليبًا، أي لم يُفرد لفظ بالذكر في حق شعيب عليه السلام ترجيحًا للأكثرية الغالبة فيما أطلق على عامة الناس، أو جاء إطلاق هذه الكلمة في حقه نظرًا إلى زعم الكفار فيه، فإن شعيبًا عليه السلام لزم السكوت على كفر أهل مدين قبل أن يبعث رسولا، ولم يبدأ دعوة الناس، فلعلهم ظنوا أنه على ماهم عليه وراضٍ بطريقتهم نظرًا إلى سكوته أو نحمل العود مجازًا على مطلق الصيرورة كما قاله بعض المفسرين.

فائدة: أي هل تريدون أن تسقونا كأس السم هذا عن كره مهما كرهنا وتبرأنا من كفركم المهلك في ضوء الأدلة والبراهين.

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

تصديق الدين الباطل والكاذب افتراء على الله تعالى، فأنى يمكن رسولًا جليلًا وأتباعه المخلصين -والعياذ بالله- أن يفارقوا الصدق ويعودوا إلى الكذب، ويقروا بأن ادعاءه الصدق و الحقانية أو كونه مأمورًا من الله تعالى مجرد افتراء وكذب على الله تعالى.

فائدة: أي هيهات أن نعود -والعياذ بالله-

إلى الكفر باختيار منا أو بإكراه منكم، وأما إذا شاء الله تعالى في حق أحد منا ذلك فمن ذا يعجزه عنه؟ ولانقاش لأحد فيما إذا اقتضت حكمته ذلك؛ فإن علمه يحيط بجميع المصالح والحكم. فلانخاف من تهديداتكم؛ لأن كل ثقتنا بالله تعالى الواحد، ولايقدم ولا يؤخر شيئًا مشيئة أحد، وإنما يكون بمشيئته وعلمه المحيط هو. فنتضرع إليه بالدعاء في جميع أمورنا وأمور غيرنا. وكلمات شعيب عليه السلام هذه توحي إلى مدى عمارة قلوب الأنبياء عليهم السلام بالشعور العميق العظيم بالعبودية والافتقار، ومدى رسوخ توكلهم واعتمادهم على الله تعالى وحده لاشريك له في كل آن وحال أشد من الجبال الراسيات، لايزعزعه شيء.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾

أي بطلان ما كان عليه الآباء، وهذا فساد في الدين، وإيفاء الكيل والميزان، وهذا ضرر في الدنيا.

فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾

والنظر في الآيات العديدة مجتمعة يفيد ظاهرها أنهم نزل عليهم ثلاثة أنواع من العذاب: الظلة، والصيحة والرجفة أي أولا أظلهم السحاب، وفيه نار ولهب، ثم جاءت من السماء صيحة عنيفة شقت القلوب، وزلزلوا من تحتهم.(ابن كثير).

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

هددوا شعيبا وأتباعه بإخراجهم من القرية، فلم يبق هؤلاء ولا قريتهم، وأما قوله: إن شعيبًا وأتباعه خاسرون، فإنهم هم الذين كانوا خاسرين خائبين لا شعيب وأتباعه.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

أي ما فائدة الحسرة على قوم بعد هلاكهم وقد جاءهم الوعظ والتذكير بأنواعه، وتم إنذارهم بالعواقب والنتائج، ولكنهم أبوا أن يصغوا بآذانهم؛ بل نازعوا حتى الناصحين المخلصين لهم.

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يواجه الناس عامةً أنبياءهم ورسلهم بالتكذيب والمعارضة حين يبعثون إليهم، فيسلط الله تعالى عليهم أولا المرض والقحوط وأنواع المشقات والآلام تنبيهًا لهم، لتكون زاجرة لهم عن فسقهم وعصيانهم، ويقبلوا إلى الله تعالى. فإذا أبوا قبول تأثير هذه الزواجر، كشف عنهم المشقات و

المصائب، وأنزل عليهم رغد العيش والنعيم ونحو ذلك، ليتأثروا بهذه النعمة ويستحيوا بعض الحياء، ويقبلوا إلى الرب تعالى، أو يغفلوا كل الغفلة في نشوة من رغد العيش والرخاء، فيزدادوا أنفة وغفلة ازديادهم صحة وأولادًا وحكومةً وسلطةً حتى إنهم ينسون المشقات السابقة زاعمين أن المشقة والراحة ليس أمرهما أُنفًا، وأنه لايد لكفرهم وتكذيبهم فيه وإلا ما كانوا ينعمون بالرخاء. وإنما هي مصادفات الدهر، واجهها آباؤنا أيضًا، وحين يفاجئهم العذاب الذي يغفلون عنه في ترفهم ونعيمهم. وما أحسن ما قال الشاه – عبد القادر – رحمه الله: إذا استمرت عقوبة العصيان على العبد في الدنيا فالمرجو أن يوفق للتوبة، فإذا استطاب العصيان فهو استدراج من الله تعالى. فلايأمن الهلاك، مثله كمثل رجل تناول سما ثم قاءه، فيرجى له الخير، وأما لو استساغه فقد قضي عليه.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

أي لسنا عدوًّا للعباد، فمن تعرض لعذاب الله تعالى فبما قدمت يداه. ولو أنهم آمنوا برسلنا، وخضعوا للحق، وتابوا عن الكفر والتكذيب ونحوهما، واتقوا الله تعالى، لصببنا عليهم بركات السماء والأرض. قال الإمام الرازي رحمه الله: البركة تطلق على معنيين: حينًا يعبر بها عن الخير الباقي الدائم، وحينًا آخر تطلق على كثرة الآثار الفاضلة». فالمراد في الآية أن الإيمان والتقوى مما يفتح أبواب نعم السماء والأرض، الدائمة الباقية أو ما كثرت آثارها الفاضلة. وليس المراد رخاء يتمتع به المكذبون أيامًا معدودات إمهالًا واستدراجًا، ويصير وبالًا في الدنيا أو في الآخرة يقينًا.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

أي حين هم نائمون في ترف ونعيم، أو حين يشتغلون في أعمال الدنيا واللهو واللعب يحدق بهم عذاب الله تعالى، وكيف أمنوا ذلك؟ مع أن فيهم الأسباب التي جلبت العذاب على الأمم السابقة، وهي الكفر والتكذيب ومعارضة ومحاربة سيد الأنبياء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

عبر عن أخذ الله تعالى المفاجئ بعد رغد العيش والرخاء في الدنيا بـ(مكر الله)، ولايأمن مكر الله تعالى في الرخاء والنعيم إلا الملعونون لشؤم أعمالهم، وأما المؤمن فلايغفل عن الله تعالى في شيء من أحواله. ونعم ما قال الشاعر الفارسي ما معناه:

«ياظفر، لا تَعُدَّ إنسانًا مهما بلغ من الفهم

والـذكاء... مَـن نسي الله في رخائه، ولم يخف الله في غضبه».

أَوَلَمْ يَهْـدِ لِلَّذِيـنَ يَرِثُـونَ ٱلْأَرْضَ مِـنۢ بَعْـدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِـذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَـعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

لايعجـز أن يؤاخـذكم كـما آخـذ الـذين مـن قبلكم.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَـدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُـواْ بِمَـا كَذَّبُواْ مِـن قَبْـلُ ۚ كَـذَٰلِكَ يَطْبَـعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُـوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾

أي هيهات أن يقروا بما أنكروه مرةً، وإن رأوا ما رأوا من الآيات والعلامات، وزالت الجبال من مكانها. فإذا بلغت أمة من الأمم هذا المبلغ من العناد والتعنت على الله تعالى، فإنه عادة يتلاشى معه إمكانية إصلاح الحال، وقبول الحق. وحينئذ يُختم على القلوب، وهذا بيان لمعنى ختم الله تعالى على القلوب.

تنبيه:

أفاد قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠٣] أن الأنبياء الذين أرسلوا إلى قرى قوم نوح، وقوم ثمود ،وأهل مدين حملوا معهم البينات- العلامات الواضحة-فقول قوم هود عليه السلام:﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] مجرد عنت وعناد.

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

المراد بالعهد إما عامة العهود أو العهد الخاص بـ(ألست)، أو العهد الذي كانوا يقطعونه عند المصائب والمشقات بأنهم لو كشِف عنهم كذا من المشقة لآمنوا، كما قال آل فرعون: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[الأعراف:١٣٤-١٣٥].

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

أي جاء بعد الأنبياء المذكورين سابقًا، وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام. وبعد أن ذكر هؤلاء الأنبياء تخلله سنة الله تعالى، الخاصة بالمكذبين، وفيه تنبيه على الكفار المعاصرين. وبعد الانتهاء مما تخلله عاد إلى ذكر حلقة عظيمة من بعثة الرسل.

فائدة: هل أحد أفسد ممن يكذب رسل الله تعالى، ويكذب بآياته ولم يقم بحقها، ويأمر خلق الله تعالى أن يعبدوه، ثم ذكر الوقائع الضرورية وأتبعها تفصيل عاقبتها.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾

حمل معظم المفسرين (حقيق) على (جدير)، ولذا وجب حمل قوله (على) على معنى الباء. أي لايجدر بي أن أقول على الله ما ليس بحق، وحمل بعضهم (حقيق) على (حريص)، وأما المترجم رحمه الله- فقد حمله على (القائم والثابت)، ومعناه: أنا قائم وثابت – من غير أدنى تنزل وتذبذب- على أن لا أقول إلا الحق والصدق، وأبلغ رسالة الله تعالى إليكم من غير نقص أو شطط، ولا يزعزع قدمي تكذيبكم وتخويفكم.

فائدة: وقد نصح موسى عليه السلام فرعون بوجوه شتى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ اِلٰٓى اَنْ تَزَكّٰى(١٨) وَاَهْدِيَكَ اِلٰى رَبِّكَ فَتَخْشٰى﴾[النازعات:١٨-١٩]. وكان من المهم جدًّا إنجاء بني إسرائيل- وكانوا من ذرية الأنبياء عليهم السلام، وكان فرعون قد أذلهم واستعبدهم كالحيوانات – من ظلمه وشدائده، فخاطب هنا فرعون تنبيهًا له على ذلك. والمعنى: خلص بني إسرائيل من قبضتك وسخرتك. فيشتغلوا في عبادة ربهم وهم أحرار، ويخرجوا معي إلى أصل وطنهم، وهو الشام، فإن جدهم إبراهيم عليه السلام كان هاجر من العراق إلى الشام وأقام به. ثم سكنوا في مصر لأجل يوسف عليه السلام. وهؤلاء الأقباط هنا يعرضون بني إسرائيل لأنواع من الظلم والاضطهاد، فلابد من تخليصهم من عبودية الأقباط المهينة وإرجاعهم إلى وطن آبائهم.

قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾

لم يتطرق شك إلى كونه ثعبانًا، وقد فغر فاه وأقبل إلى فرعون، ففزع فرعون وطلب من موسى أن يمسكه. فما إن مسه موسى بيده حتى عاد عصا.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

أي أخرج يده بعد أن أدخله في جيبه وإبطه فرأى الناس بأم أعينهم أنها بيضاء ولامعة بصورة غير عادية، ولم يكن هذا البياض واللمعان من جراء مرض من البرص وغيره؛ بل كان يبدو أن نور القلب المنير سرى إلى اليد معجزة له.

قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾

يبدو أن فرعون خاف من معجزات موسى عليه السلام فجمع الناس، فأبدى أولا هو – كما في الشعراء- ثم تبعه الملأ من قومه في إبداء رأيهم أن موسى عليه السلام ساحر عليم فيما يبدو؛ لأن الخوارق التي ظهرت على يد موسى عليه السلام لم تقبل تأويلا في المحسوس أحسن من أن يصفوه

بالسحر.

يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾

أي أرى عجائب السحر، وقد استمال الناس إلى نفسه، وبالتالي يخلق له النفوذ والتأثير في البلاد، ويخرج المواطنين الأصليين في مصر وهم الأقباط من أرضهم متسترا بالذود عن بني إسرائيل وتحريرهم. فضعوا في بالكم هذه الأوضاع، وقدموا آراءكم كيف نفعل به؟

قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

بعد ما تشاوروا بينهم تقرر أن يطلبوا من فرعون عدم الاستعجال في أمرهم - أمر موسى وهارون-، وأحسنُ نقض لهم وأشده تأثيرًا أن يرسل الشرطة في أنحاء الدولة، يجمعون له سحرة أبرع منه في فن السحر، فيجري بينهم وبينه مسابقة، وقد فعلوا ذلك.

وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾

وقد نبَّه سحرة فرعون في أول أمرهم بقولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَاَجْرًا﴾ على أن الأنبياء عليهم السلام- الذين مقالهم ﴿فَمَا سَاَلْتُكُمْ مِّنْ اَجْرٍ ۭ اِنْ اَجْرِيَ اِلَّا عَلَي اللّٰهِ﴾ [يونس:٧٢] - ليسوا محترفين ذلك.

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

أي ليس مجرد الأجرة على فعلكم؛ بل أزيدكم عليه أنكم تصيرون مقربين إلي في المجلس، و وفي زمرة خاصة أصحابي.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

وإنما قال ذلك؛ لأن موسى عليه السلام سبق أن ألقى عصاه وحوَّله حية تسعى بإذن الله تعالى بين يدي فرعون.

قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

أي ما دمتم راضين بهذه المسابقة، وتجعلونها القول الفصل بيننا، فابدؤوا بإلالقاء، ولاتدخروا جهدا في أمركم؛ لأن مشاهدة غلبة الحق بعد أن بذل الباطل قصارى جهده وسعيه، كان أرجى بمزيد التأثير، وأوقع في النفوس، فلم يكن ذلك في الواقع إذن من موسى عليه السلام بمواجهة المعجزة بالسحر؛ بل كان أخذًا بأحد الوجهين، وهو أكثر الوجوه تأثيرًا في إخماد الباطل وإظهار الحق وبيانه.

فائدة: غلبت السحرة بقوة السحر، وقد سحروا أعين الناس، وأفزعوهم. وفي آية أخرى أنهم ألقوا حبالهم وعصيهم على الأرض، فكأنها حيات تسعى، ﴿يُخَيَّلُ اِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ اَنَّهَا تَسْعٰى﴾ [طه:٦٦]. ويظهر من هذه الآيات أن الشعبدة التي قدمها سحرة فرعون لم تكن عبارة عن

قلب الماهية في الواقع، و إنما كان تخييلًا وسحرًا للعين. ولايلزم من ذلك انحصارُ جميع أقسام السحر فيه. ولعلهم ظنوا أنهم يتغلبون على موسى بمجرد حيلتهم هذه. وربما قدموا سحرًا أعظم من هذا السحر العظيم لو وجدوا فرصة له، ولكن معجزة موسى عليه السلام أصابت السحر بهزيمة نكراء بعثت اليأس في أول لقاء. فلم يجدوا فرصة أخرى لمواصلة المواجهة والمعارضة.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

تحولت عصا موسى عليه السلام حية تبتلع الحبال والعصي، وانكشف الستار عن لعبهم. فتنبه السحرة على أنه حقيقة تفوق السحر. فلقي أصحاب فرعون الهزيمة النكراء على ملإ من الناس، وعادوا من الميدان بذل وهوان. ورأى السحرة الآية الإلهية، وخروا ساجدين من غير اختيار. وقيل: سجد موسى وهارون لله تعالى شكرًا على ظهور الحق. وفي حينه خر السحرة ساجدين. وقوله: (ألقي السحرة) يفيد أنهم غلب عليهم حال قوي جدا لم يجدوا معه بدًّا من الخضوع و الاستسلام. ولاتسأل عن الرحمة الإلهية، فهؤلاء الذين برزوا قبل قليل لمواجهة رسول الله لم يرفعوا رؤوسهم من السجود حتى عادوا أولياء وعارفين لله تعالى.

قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

وإنما قالوا: (رَبِّ مُوْسَى وَهَارُوْنَ) مع (رَبِّ العَالَمِيْنَ)؛ لأن فرعون كان يقول: (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى). وفيه إشارة إلى أنه لايكون ربا للعالمين إلا من أظهر موسى عليه السلام بربوبيته الخاصة من غير توسط بأسباب الدنيا الظاهرة على المتكبرين على رؤوس الأشهاد.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

أي هذا ما تمالأتم أنتم السحرة عليه، ولعل موسى شيخكم الأكبر، فقدمتموه، ثم أبديتم هزيمتكم، لتؤثروا في قلوب الناس. وهدفكم من وراء هذه الدسيسة العميقة أن تخرجوا أصل مواطني هذه البلاد منها، وتتولوا ملك مصر. وإنما قال فرعون ذلك تسترًا على هزيمته الواضحة واستخفافا بعقولهم: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوْه) [الزخرف:٥٣]. ولكن وقع ما كان يخافه فرعون وقومه بتقدير من الله تعالى، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامٰنَ وَجُنُوْدَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُوْا يَحْذَرُوْنَ﴾[القصص:٦].

قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾

وكان السحرة منتشين بنشوة التوحيد وتمني لقاء الله تعالى، وكأن الجنة والنار كانتا نصب أعينهم، فما كان لهم أن يبالوا بهذه التهديدات، فصرحوا بأنه لاضير، فافعل ما بدا لك، إنا إلى ربنا راجعون، وإن كان ذلك على يديك. ومشقة الدنيا أهون من عذاب الآخرة. ويسهل على العشاق الصبر على أشد الآلام والمصائب في الدنيا ابتغاء رحمته ورضوانه سبحانه وتعالى. ونعم ما قيل:

هنيئا لأرباب النعيم نعيمهم

وللعاشق المسكين ما يتجرع

وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

أي ما دمنا مجرمين لإيماننا بآيات ربنا، فندعوه أن يوفقنا للصبر الجميل على اعتداءاتك وتشديداتك، والاستقامة عليه حتى النفس الأخير، واحفظنا أن نقول فزعًا ما ينافي رضاك والخضوع لك.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

أي حين خر السحرة ساجدين بعد أن رأوا آية الحق، وأخذت بنو إسرائيل تظاهر موسى عليه السلام؛ بل مال بعض الأقباط أيضًا إليه، فزع ملأ فرعون، وحرضوه على التشديد على موسى بقولهم: لاتدع موسى وقومه ليكونوا أحرارًا يفسدون في الأرض، ويستميلوا عامة الناس إليهم، فيخرجوا على الحكومة، فيبطلوا في البلاد عبادتك وعبادة الآلهة التي سميتها.

فائدة: كان فرعون يصف نفسه بالرب الأعلى، ولعله تبريرًا لهذا الرب الأعلى وضع أربابًا أخرى أدنى منه، وسموها هنا بـ(آلهتك). وقيل: كانت تماثيل للبقر وغيرها، وقيل: هي الشمس و الكواكب، وقيل: وضع فرعون لنفسه تماثيل، ووزعها بين القوم ليعبدوها، مهما كان الأمر، كان يصف نفسه بالرب الأعلى. وكان ينفي- العياذ بالله- وجود الله تعالى بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨].

فائدة: كان فرعون يضطهد بني إسرائيل حتى قبل مولد موسى عليه السلام، فكان يقتل أبناءهم مخافة أن يكون المولود هو الإسرائيلي الذي على يده ذهاب ملكه كما أخبره به أهل النجوم. ويستحيي البنات لاستخدامهن وغيره. ولما رأى ما عليه موسى عليه السلام من التأثير، خاف أن تتقوى بنو إسرائيل بتربيته وعونه، فقرر مغترا بقوته وبأسه أن يستأنف العمل بخطته السابقة. وقلق بنو إسرائيل حين بلغهم أمر هذه الخطة، وفزعوا منها، فذكر موسى عليه السلام علاجها في الآية التالية.

* * *

الصلاة تعيد برمجتنا

بقلم: الأستاذ / أحمد بسام ساعي

مثلما تَحُتّ الأمواجُ المتدافعة صخورَ الشاطئ على مرّ الأيّام والسنين؛ هكذا تمارس فينا الحياة، متمثّلةً بالزمن والألفة والتكرار والاعتياد، عمليّة الحتّ في صخورِ ما حقّقته الصلاة في نفوسنا من قوّةٍ وتوازنٍ وتنقيةٍ من أدران الحياة اليوميّة، فتحاول هذه العناصر الدنيويّة بأمواجها المتلاحقة برمجتنا وفقًا لخطّ أهوائها، ساعةً إثر ساعة، ويومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، بحيث لا نشعر أنّنا قد تغيّرنا مع الزمن، وابتعد بنا المطاف عن النسخة الفطريّة الأصليّة من البرنامج الإلهيّ الموضوع لنا، ذلك «القرص النوراني» الذي يخلو من أيّ (فيروس) قد يحرف مسار البرنامج الأصلي بعيدًا عن أصله السماويّ:

- «إنَّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ - اي يهترئ - في جَوْفِ أحدِكُمْ كَما يَخلَقُ الثّوبُ، فاسْألُوا الله تعالَى أنْ يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكمْ» (صحّحه الألباني في صحيح الجامع، عن عبد الله بن عمرو).

ومن فضل الله علينا أنّنا - ومن دون سائر الأمم والأديان- ما نزال نحتفظ بالنسخة الأصليّة من هذا «القرص النورانيّ» لبرنامج إيماننا؛ بحيث نستطيع الرجوع إليه، وإعادة برمجة نفوسنا عليه، فنعيد ترميمها، ونزيل عنها كلّ ما تسرّب إليها من (فيروسات) أو انحرافات أو أمراض.

إنّها النسخة التي حفظت لنا، حتّى الآن، برنامج القرآن الكريم كما أنزل تمامًا، من غير تبديلٍ ولا تحريفٍ ولا زيادةٍ ولا نقصان، والنسخة التي حفظت لنا، دون سائر الأديان، وبالرواية الحرفيّة المحقَّقة والمتعدّدة المصادر والرواة، برنامج الصلاة النبويّة الشريفة قولًا وعملًا، والذي يلخّص لنا نبيّنا الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حقيقته بأربع كلمات:

- «صلّوا كما رأيتموني أصلّي» (صححه الألباني في صحيح الجامع، عن مالك بن الحويرث الليثي).

تُرى، لو لم تكن هناك صلاة، هل كان بإمكاننا أن «نخترع» صلاةً تصلنا بهذا المدبّر الكبير لحياتنا والمنظِّم القدير لعالمنا وكوننا؟ وفي أيّ شكلٍ تتصوّرون أن يكون هذا «الاختراع» البشريّ الهامّ في وسائل الاتّصالات يا تُرى؟

لقد فعل ذلك آخرون غيرنا.

لو بحثتم في التوراة والإنجيل، كما هما الآن بين أيدينا، فلن تجدوا فيهما أيّة تفاصيل عن طبيعة صلاة موسى أو صلاة المسيح، عليهما جميعًا السلام؛ بحيث يستطيع أتباعهما الاقتداء بهما في هذه الصلاة، فكان بدهيًّا لهؤلاء أن يخترعوا صلاةً هي هذه الصلاة التي يؤدّونها اليوم، وقد ورثوها عن آبائهم

وأجدادهم.

ولكـن، مـا الـذي سيفتقده مـصلّيهم، والأمـر هكذا، أكثر ما يفتقد؟ إنّه من غير شكّ؛ سيفتقد دائمًا وهو يصلّي تلك المتعة الرائعة التي يشعر بها المصلّي المـسلم، ولا تعـدلها في الحـقّ أيّـة متعـة، إنّهـا متعـة الشعور بأنّه إنّما يردِّد صلاةً هي نسخةٌ طبق الأصل عن صلاة موسى أو صلاة المسيح، عليهما السلام، تلك التي أخذاها مباشرةً عن الله سبحانه.

ليس في التوراة أو الإنجليل أيّ وصفٍ لصلاة هذين النبيّين الجليلين يستطيع أتباعهما الاستناد إليه في صلاتهم. إنّ كلّ ما في الإنجيل – مثلًا- أنّ أحد تلامذة المسيح عليه السلام قال له: «علِّمنا أن نصلّي كما علَّمَ يوحنّا (المعمدان) تلاميذه، فقال لهم يسوع: متى صلّيتم فقولوا..» وتلا عليهم دعاءً من ٣٥ كلمة (حسب رواية إنجيل لوقا، وهو ٤٢ كلمة حسب رواية إنجيل متّى) [متّى: ٦: ٩-١٣، ولوقا: ١١: ٢-٤]. وهذا شأنهم مع الصوم أيضًا، فكلّ فريقٍ يقترح لنفسه شروطه وقواعده ومسموحاته وممنوعاته ومدّة صيامه وأوقاته، وهي تتغيّر باستمرار، بين بلدٍ وآخر، وبين زمنٍ وآخر.

كثيرًا ما ترى بعض المسلمين يتغاضبون، ويحتدّون فيما بينهم، بسبب خلافٍ حول تفاصيل صغيرةٍ في صلاتهم: هل نرفع يدينا، مثلًا، مع كلّ تكبيرة، أم مع بعضها دون بعض، أم مع تكبيرة الإحرام وحدها؟ أين نضع يدينا أثناء الوقوف: عند السرّة؟ فوق السرّة؟ أعلى بقليل؟ وهكذا حول تفاصيل أخرى في الصلاة، كثيرًا ما تؤدّي بهم إلى التشاجر والتنافر والخصام. أمّا أنا شخصيًّا فأشعر بغبطةٍ لا تصدَّق. هل تصدّقونني لو قلت: إنّني أستمتع غاية الاستمتاع حين أشاهد أو أسمع عن تلك الخلافات؟ كيف، وقد وصلت إلينا صورة الصلاة عن نبيّنا الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاملةً ومفصّلة، ومتكرّرةً في رواياتٍ عريضةٍ عديدةٍ عن الصحابة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى حدّ الاختلاف أحيانًا على مثل هذه التفاصيل الصغيرة والكثيرة والدقيقة؛ بل هي من الدقّة بحيث تجعلنا مغرمين بالبحث عن تفاصيل التفاصيل، وبأن نتوقّف للتحرّي عن بضعة سنتمترات أعلى أو أدنى في مواضع أيدينا في الصلاة، وعلى المسلم الالتزام بها، على اختلافاتها، بحيث لو حدث وأخطأ المصلّي فخرج عن أيٍّ من الخطوات المرسومة له، لترتّب عليه أن يسجد لله سجدتي سهوٍ في نهاية صلاته.

الله.. أيّة عطيّةٍ رائعةٍ من السماء تجعلنا نستمتع بهذه الكنوز التي امتلأت بها مراجعنا ورواياتنا؛ إلى حدِّ الاختلاف على بعض تفاصيلها هنا أو هناك؟! وأيّ نبيٍّ أمينٍ هذا الذي حملها إلينا كاملةً كما تسلّمها من ربّه، من ربّه مباشرةً وهناك في السماء، وحرَص على أن ينقل لنا هذه التفاصيل الدقيقة عن خارطة وصناعة أعجب وأسهل وسيلة نقلٍ في التاريخ البشريّ؛ تخترق بنا طبقات الفضاء العليا إلى حيث الله!!

هل تدركون قيمة أن يكون لدينا صورةٌ تفصيليّةٌ كاملةٌ للصلاة، تمامًا كما تسلّمها نبيّنا ﷺ من ربّه ليلة معراجه إلى السماء، تتّفق على خطوطها

العريضة؛ بل أحيانًا على تفاصيلها الصغيرة، كلّ مذاهب المسلمين؟

وأكثر من هذا، هل تدركون أهمّية وجود «سُنّة» في الإسلام تغطّي تفاصيل كلّ شيءٍ في حياتنا؛ من خلال وصفها لكلّ شيءٍ في حياة نبيّنا ﷺ؟

لن يعرف قيمة السنّة إلا من أدرك حرمان الأديان الأخرى منها، وإنّني لأعجب أشدّ العجب، كما أشفق أشدّ الإشفاق، على هؤلاء الذين نادوا، متأثّرين بتلك الأديان من غير أن يدركوا ذلك، باستغناء المسلم عن السنّة واكتفائه بالقرآن الكريم!

أيّ كنزٍ وأيّة خصوصيّةٍ، وأيّ غطاءٍ دافئٍ وطريقٍ سالكةٍ آمنةٍ واضحةٍ، يريدون أن يجرّدوا الإسلام منها، وكأنّه تعالى لم يخصّ «السنّة» بعشرات الآيات من كتابه الكريم، ولم يدعُنا بإلحاحٍ إلى اتّباعها والتمسّك بها والاقتداء بصاحبها ﷺ حين قال لنا:

- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٥٩/٧].

- ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٥/٩٢]

بل حين ساوى بين طاعتنا له وطاعتنا لنبيّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٤/٨٠].

وحين أكّد ارتباطنا بسنّة نبيّه ﷺ وسمّاها لنا «أُسوةً حسنةً»:

- ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٣٣/٢١].

من هنا تأتي أهمّية السُّنّة، ومن هنا تتّضح لنا أهمّية صلاتنا وأهمّية أدائنا لها؛ بكامل حركاتها ونصوصها وتفاصيلها. إنّها نسخةٌ أصليّةٌ لبرنامجٍ إلهيٍّ كامل، مركّز، سريع الفعالية وقصير المدى، لإعادة برمجة نفوسنا خمس مرّاتٍ كلّ يوم، وهو تكرارٌ كافٍ للقضاء على أيّ فيروسٍ يتسلّل إلى حاسوب حياتنا في ساعات الليل أو النهار، ويزوّدنا بجدارٍ تحصينيٍّ يردّ عنّا فيروس الانحراف، الذي ما يفتأ يراودنا عن أنفسنا وعن فطرتنا الإلهيّة، من ناحية، كما يقوم بإطفاء حرائق غابات الذنوب والأحزان التي تشتعل في كلّ ركنٍ من أركان حياتنا الدنيويّة؛ لتلتهم أمانها وراحتها النفسيّة وطمأنينتها، من ناحيةٍ أخرى:

- «تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم الصبحَ غسَلَتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم الظهرَ غسَلتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم المغربَ غسَلتْها، ثمّ تحترقون تحترقون، فإذا صلّيتم العِشاءَ غسَلتْها، ثم تنامون فلا يُكتبُ عليكم حتّى تستيقظوا» [صححه الألباني في صحيح الترغيب، عن عبد الله بن مسعود].

سألتني طبيبةٌ يابانيّةٌ شابّة: أصحيحٌ أنّ المسلمين يصلّون خمس مرّاتٍ كلّ يوم؟ أجبتها: نعم. قالت بنبرة دهشةٍ، هي أقرب إلى الاحتجاج: وكيف تستطيعون هذا؟ أليس هذا كثيرًا جدًا؟ قلت: أنت طبيبة، وتقابلين وتعالجين عددًا كبيرًا من المرضى خلال عملك، فكم مرّةً تطهّرين يديك كلّ يوم؟ قالت: ثلاثين.. خمسين.. ونظرَتْ إليّ وقد قرأت في عينيها أنّها

أدركت ما أريد أن أقول؛ قبل أن أقوله.

- «قُمْ فصلِّ، فإنّ في الصلاةِ شفاءً» [رواح ابن ماجه، عن أبي هريرة].

الحياة من حولنا مليئةٌ بالفيروسات، من إغراءاتٍ وإغواءاتٍ وضعفٍ إنسانيٍّ وانحرافٍ ونزعاتٍ شيطانيّة، وطهور كلّ ذلك ليس الماء؛ بل الصلاة. الماء يطهّر أجسادنا من الخارج، والصلاة هي الأداة التي تستطيع أن تطهّرها من الداخل. إذا أحسّ المصلّي أنّه خرج من صلاته مثلما دخلها، ولم يشعر أنّ شيئًا ما في داخله قد تغيّر، أو أنّه قد تخلّص من كثيرٍ ممّا علق به من شوائب الخطايا، أو لم يشعر وكأنّه قد وُلد من جديد؛ فهذا يعني أنّه لم يستعمل قرص «إعادة البرمجة» الذي استخدمه في هذه الصلاة بشكلٍ سليم، بدليل أنّ الفيروسات ما تزال هناك تُلوّث أعماق ذاته، وسينصرف الآن من صلاته ليعود إلى ما كان عليه من ضعفٍ إنسانيٍّ وتشوّهٍ وانحراف.

لو قارنّا بين حياة المصلّي وحياة غير المصلّي؛ لأشفقنا على هذا الأخير من فقدانه لهذا السلاح الهامّ، الذي يستعين به في كلّ ملمّةٍ أو حدثٍ أو مصيبةٍ تواجهه في يومه، وما أكثرها، ولَعجبْنا من أمرِ المصلّي، المصلّي الحقيقيّ، ومن أمرِ وجهه الذي يظلّ مضيئًا مهما ادلهمّت أمامه الدروب، ولأخذتْنا الحَيرة من عينيه السمحتين اللتين تنطبعان بالرحمة والتواضع واللين، مهما اشتدّت عليه المحن، حتّى لتكاد تميّز، وأنت تنظر في وجوه مَن حولك، المصلّي من غير المصلّي، وكأنّ هذه الرحمة التي تَغشى عينَي الأوّل باستمرار؛ هي ما تشير إليه الآية الكريمة وهي تتحدّث عن (سِيما) السجود في وجوه المصلّين:

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩].

إنّها، والله دائمًا هو الأعلم، ليست تلك العلامة السوداء التي نراها على جباه بعض الناس، كما يحلو لبعضنا أن يفهمها، ولو كانت هي المقصودة لكانت الآية (سِيمَاهُمْ في جباههم). إنّها الملامح المضيئة السمحة في الوجه، تلك التي لا يحظى بها إلّا المصلّي، ولا تخطئ رؤيتَها في وجوه المصلّين فراسةُ المؤمن.

إنّ جميع العبادات المطلوبة منّا ما هي في حقيقتها إلّا «إعادة برمجةٍ» لنفوسنا، على اختلافٍ في وظيفة هذه العبادات ومداها الزمنيّ.

الصيام برنامجٌ طويل «التنزيل» في كومبيوتر نفوسنا، ولكنّه طويل الفاعليّة. إنّه يحتاج إلى شهرٍ كاملٍ لتنزيله، ولكنّ فاعليّته تمتدّ إلى عامٍ كامل. نحن نعيد بالصيام برمجة شهواتنا التي أُثقلت بالفيروسات على مدى العام الفائت، ونعيد برمجة أبصارنا التي لا بدّ أن يكون الضعف الإنسانيّ أمام مغريات الشيطان قد أوهنها مع الزمن، ونعيد برمجة لساننا وقد اختلط عنده، مع مرور الشهور، الخطأ بالصواب، والحلال بالحرام، والخبيث بالطيّب، والحقّ بالباطل، ونعيد برمجة نفوسنا التي تسرّبت إليها على مدى العام أشكالٌ من الأدواء الشيطانيّة،

كادت تقتل فينا بذور الرحمة والحقّ والعدل وحسن الظنّ والرضا والقناعة والتواضع والصبر والبرّ والشكر وحلاوة الإيمان وحسن الخطاب.

وهي أيضًا وظيفة الحجّ، ولكن على مدىً أطول وأعمق. فالحجّ المبرور (ليس جزاؤه إلّا الجنّة)، ومن تقبّل الله منه حَجّته عاد من ذنوبه (كيومِ وَلدتْه أمّه)، كما وعدنا الرسول الكريم ﷺ. إنّ ذكرى طوافك وتحيّتك للبيت العظيم، ووقفتك على عرفة، وقيامك بالمناسك، سترافقك طوال حياتك، فإذا هممت بذنبٍ قالت لك ذاكرة الحجّ: ماذا تفعل يا فلان وقد حججت؟! وإن انتابك ضعفٌ أو وهنٌ دنيويٌّ صاحت في داخلك: تماسكْ فأنت أنت الذي طفت بالبيت الحرام ووقفت ولبّيت على عَرَفة؛ مستغفرًا تائبًا منيبًا إلى ربّ ذلك البيت وصاحبِ تلك الوقفة.

ربّما كان الفرق الوحيد، والأعظم، بين الصلاة والعبادتين الأخريين؛ هو أنّها مختصّةٌ بصاحبها فلا يستطيع أن يحوّلها إلى آخر، ومختصّةٌ بوقتها فلا يستطيع أن يؤخّرها إلى وقتٍ آخر يجده مناسبًا له ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣/٤]. من فاته صيام يومٍ من رمضان لسببٍ قاهر؛ عوّضه في يومٍ آخر بعد انتهاء رمضان، أو ربّما افتداه بصدقةٍ أو إطعام مساكين، ومن لم يستطع الحجّ هذا العام فبإمكانه أن يفعل ذلك في عام آخر، أو أن ينيب عنه غيره لو استحال عليه ذلك؛ بل إنّ بإمكان الأبناء أن يحجّوا عن آبائهم، حتّى بعد وفاتهم، أمّا الصلاة فإمّا أن يؤدّيَها صاحب الصلاة بنفسه وفي وقتها؛ وإمّا أن تضيع منه إلى الأبد.

من هنا تتسارع صلوات اليوم، شيئًا فشيئًا، مع تزايد هجمات شياطين الحياة عليك: تصلّي الفجر أوّلًا، ثمّ تنتظر نصف نهارٍ كاملًا قبل أن تصلّي الظهر، ولكنّ المهلة التالية ستكون أقصر، فالنصف الثاني من النهار ستتوسّطه هذه المرّة صلاةُ العصر قبل أن تختتمه بصلاة المغرب، ثمّ ما هي إلّا ساعةٌ وبعض الساعة حتّى تجدَ نفسك مع صلاة العشاء، ثمّ تنصرف إلى النوم.

هذه هي خصوصيّة الصلاة، وهذا بعضٌ من أسرار تقارب أوقاتها، وتكرارنا لها خمس مرّاتٍ كلّ يوم. إنّ ممارسة ارتفاعنا عن الدنيا بالصلاة في كلّ بضع ساعاتٍ تمرّ من حياتنا؛ من شأنها أن تعيد التوازن إلى مداركنا، وترينا الدنيا باستمرارٍ في حجمها الحقيقيّ؛ فتجعلها صغيرةً في أعيننا؛ بكلّ ما فيها من خصاماتٍ وحزازاتٍ وحروبٍ ومؤامراتٍ وأحقادٍ وتكالبٍ على المال والشهرة والمكاسب السريعة؛ بل إنّ هذه الممارسة هي سلاحٌ دفاعيٌّ فعّالٌ بيد المؤمن؛ يستعين به على مواجهة الأحداث المتلاحقة التي تعترض مجريات يومه، موقنًا ومن غير تردّد، بصدق الآية الكريمة التي تجعل من الصلاةِ خير وصفةٍ نستعين بها لدنيانا وأخرانا معًا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

فأين تجدون، في كلّ مصانع السلاح في العالم وأحدثها وأتقنها، سلاحًا فعّالًا، ودقيق الرماية ومضمون إصابة الأهداف، ويضمن النصر لصاحبه، ويحقّق النتائج المرجوّة منه وأكثر، مثل هذا السلاح؟

من تـاريخ الجامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبـند

(الحلقة ١٣١)

ديباجة

بقلم: **السيد محبوب الرضوي رحمه الله**

نقله إلى العربية: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

نعم ما قال الشاعر الأردي ما معناه:

إن ضجـــة العنـــدليب نفخت الـــروح في البستان وإلا فقد كان كل نور من أنواره في نشوة من نوم الدلال.

يوم الخميس ١٥/المحرم الحرام عام ١٢٨٣هـ (٣٠/مـايو عـام ١٨٦٦م) يـوم مبـارك وسـعيد في تـاريخ الهنـد الإسـلامي، الـذي شـهدت ديوبنـد فيـه تأسيس النشأة الأخرى للعلوم الإسلامية في أرض الهند. ونظرًا إلى الأسلوب البسيط والعادي الذي جاء افتتاحها عليه كان من الصعوبة بمكان القول بأن هذا الكُتَّاب الذي يشهد افتتاحه بهذه البساطة والعوز، لايمر عليه إلا بعض السنوات حتى يتحول إلى أكبر مركز للعلوم الإسلامية في آسيا، فلم يلبث أن بـدأ طـلاب علـوم الكتـاب و الـسنة والـشريعة والطريقة ينسلون إليه زرافاتٍ ووحدانًا علاوةً على شبه القارة الهندية من المناطق الشاسعة في أفغانستان و إيـران، وسـمرقند، وبخـارا، وبورمـا، وإندونيـسيا، وماليزيـا، وتركيـا، والقـارة الإفريقيـة، وأنـارت أشـعة العلم والمعرفة قلوب وعقول المسلمين في قارة آسيا بنور الإيمان والثقافة الإسلامية كلمح بالبصر.

وفي الوقـت الـذي شـهدت دارالعلـوم/ديوبنـد نـشأتها كـادت المـدارس القديمـة الهنديـة تتلاشـى، وبعض ما تبقى منها لم يكن إلا بمثابة دودة صغيرة في الليـل الأليـل، وكـان يبـدو حينئـذ أن العلـوم الإسلامية قد شدت رحالها من الهند، ونعم ما قاله الشاعر الأردي ما معناه:

«حيث تدير البصر لاذكر إلا للشرك والبدع، وقد فنيت مدارس دروس الشريعة كلها

لم يعُد أثر لما كان عليه السلف من المجد.. قد ولى عهد الحكم الإسلامي».

وفي مثل هـذه الأوضـاع أدرك بعـض أهـل الله والعلماء الربانيين الخطر الداهم، فقد كانوا على علمٍ

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

بـأن الأمـم لـيس لهـا مكانـة صـحيحة إلا بعلمهـا، فاسـتغنوا عـن حكومـة ذلـك العـصر، وأسـسوا دارالعلوم/ديوبند على التبرعات الشعبية فقط. ومن المبـادئ التـي وضـعها الإمـام النـانوتوي رحمـه الله لدارالعلوم/ديوبند وأمثالها من المدارس أنه لابد من إدارة دارالعلـوم بالتوكـل عـلى الله تعـالى عـلى التبرعـات الـشعبية، ولايعتمـد فيما يخص العـون إلا على قليلي الدخل من الشعب.

وقد أصبحت دارالعلوم/ديوبند اليوم مركزًا دينيًّا وعلميًّا شهيرًا، وهي أعظم مؤسسة تقوم بنشر الإسلام، وأكبر مصدر لتعليم العلوم الدينية. وقد تخرج من دارالعلوم/ديوبند في كل عصر أفاضل قاموا بخدمات غالية في نشر العقائد الصحيحة والعلوم الدينية وفق متطلبات العصر، كما يشتغل هؤلاء - علاوة على شبه القارة الهندية- في البلدان الأخرى في الخدمات الدينية، واحتلوا مكانةً بارزةً في إرشاد الأمة الإسلامية في دينها في كل مكان. والحق أن دارالعلوم/ديوبند تشكل حركةً دينيةً تعليميةً وإصلاحيةً كبيرةً في القرن الثالث عشر الهجري، ومثلت حاجة من حاجات الوقت، قد يعـرِّض الإغـماضُ عنهـا المـسلمين في المـستقبل للأخطـار غـير المحـسوبة. و القافلـة التـي كانـت لاتـضم إلا نفـسين في ١٥/ المحـرم الحـرام تمـشي نفوس في كثير من دول آسيا اليوم تحت رايته.

تعتبر دار العلوم منذ قرن واحد مضى مؤسسة تعليمية لانظير لها في شبه القارة الهندية؛ بل جميع العالم الإسلامي. ولاتحتل مؤسسة تعليمية أخرى – غـير الجـامع الأزهـر- مـن الأهميـة نظـرًا إلى قـدمها ومرجعيتها ومركزيتها وكثرة عدد طلابها ما تحتله دارالعلـوم ديوبنـد في العـالم الإسـلامي. ففـي هـذه القرية الخاملة الهندية وضع حجر أساس دار العلوم على أيدي مباركة للصالحين المخلصين فلم يلبث أن قامت مكانته العلمية في العالم الإسلامي، وعادت مدرسـة أحـب إلى القلـوب في العـالم الإسـلامي. واجتمـع طـلاب العلـوم والفنـون ومحققوهـا مـن الـــدول الإســـلامية في دارالعلـــوم/ديوبنـــد. فالشخـصيات العلميـة الدينيـة التـي نراهـا اليـوم في طول شبه القارة الهندية وعرضها معظمها استقت من بحر العلم هذا، وجلس كبار العلماء إلى هذه المؤسسة العظيمة لتلقي العلم فيها. ومن الحقائق أننا إذا نظرنا إلى الخدمات الدينية الغالية فلاتوجد مدرسة تعليمية في شبه القارة الهندية؛ بل وفي البلاد الإسلامية الأخرى – إذا استثنينا اثنتين أو ثلاثًا- قامت بهذه الخدمات الدينية العلمية القيمة غير دارالعلـوم/ديوبنـد. وقـد اعـترف بـالأعمال الدينيـة والعلميـة والدعويـة والتأليفيـة التـي قـام بهـا علـماء

دارالعلوم شبهُ القارة الهندية؛ بل الدول الإسلامية الأخرى أيضًا. وخاصة نراها متصدرة في مجالات الإرشاد والتوجيه والتدريس والدعوة. واحتلوا مكانةً ساميةً في المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية. ولقد دوى صيت دارالعلوم حتى في المجالس العلمية في أفغانستان، وبخارا، وسمرقند. وتعين علماؤها الذين تخرجوا منها رؤساء هيئات التدريس في المدارس الكبرى. ومن الحقائق التي يؤيدها التاريخ أن ينبوع دارالعلوم الفائض هذا مستمر في سقي عطاشى العلوم بخصائصها منذ أكثر من قرن من الزمان. وتفوح آسيا كلها برائحة بستان النبوة. وليس في آلاف ومئات الآلاف من المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي إلا مؤسستان نالتا أعظم ثقة المسلمين، وهما: الجامع الأزهر، ودارالعلوم/ديوبند. ولامثيل للخدمات الدينية التي قامت بها المؤسستان. ونشاطات دارالعلوم الدينية والعلمية والفكرية هذه أضفت عليها المركزية في عيون العالم الإسلامي. ومن العجب العجاب أن دارالعلوم كسبت هذا الرقي كله في غنى عن الحكومة. وإن فيوض دارالعلوم ونفحاته العالمية تؤكد أن هذه المدرسة تتعرض لتجليات خاصة من العلم الإلهي والعلم النبوي، تستهوي القلوب إليها بصورة مستمرة. وماذا قدمت دارالعلوم؟ ماذا قامت به من الأعمال العبقرية؟ وكم خرجت من الشخصيات الشهيرة؟ وكم خلفوا في كل ميدان من ميادين الحياة من معالم خدمتهم وإفادتهم؟ كل ذلك ستعرفه من خلال مطالعة تاريخ دارالعلوم/ديوبند. ولاريب في أن مسلمي شبه القارة الهندية أحقاء بأن يفخروا بوجود دارالعلوم/ديوبند ويفرحوا بها. وتاريخ دار العلوم في العصر الحاضر يمثل بابًا مشرقًا من تاريخ جهود المسلمين. ولايمكن التغاضي عن هذا الجهد العظيم في مجال إقامة الدين والحرية الفكرية في تاريخ المسلمين. فدار العلوم في الواقع بحر لاساحل له، يستقي منه عطاشى العلوم لا في شبه القارة الهندية ؛ بل في آسيا كلها. وإذا أمعنا النظر في دراسة تاريخ دارالعلوم/ديوبند تجلى لنا أنها ليست مجرد مدرسةٍ تعليميةٍ على الطراز القديم؛ بل تشكل حركةً كبرى لإحياء الإسلام، ونشأة الملة.

وإنشاء هذه المدرسة في أرض ديوبند، وإحكامها وتعزيزها حصيلة الجهد المشترك لمسلمي شبه القارة الهندية. فخدمة الدين، وتأييد الإسلام، وإحياء العلوم والفنون الإسلامية، ونشرها، والأخذ بأيدي الطلاب الراغبين في العلم الديني مما يترجم الأعمال العبقرية الهامة التي قام بها دارالعلوم/ديوبند. وتقوم دارالعلوم بتربية المسلمين تربية علمية عرفانية صحيحة منذ قرن وأربعة عشر

عامًـا. وصـارت القـاهرة مركـزًا للعلـوم والفنـون الإسـلامية في أعقـاب انهيـار بغـداد، كـذلك كانـت المركزيــة العلميــة في حــظ دارالعلــوم/ديوبنــد في أعقـاب انهيـار مدينـة «دهـلي»، وخرجـت منهـا كبـار الشخـــصيات الـــشهيرة، وتربـــى في أحـــضانها مالايحـصون مـن العلـماء والأفاضـل. وبـرع فيهـا الآلاف المؤلفـة مـن العلـماء والمـشايخ والمحـدثين والفقهـاء والمـصنفين والأكفـاء في العلـوم الأخـرى. وزينـوا سـماء العلـم والعمـل. وقـاموا بخدمـة الـدين على مستويات مختلفة، ولازالوا يقومون بها في كل ناحيـة مـن أنحـاء شـبه القـارة الهنديـة هـذه. ويـشكل تاريخ دارالعلوم بابًا تاريخيًّا لفترة من تاريخ الإسلام بارزة. وحاصل القول أن هذا البحر الزاخر سبق أن سـقى عـددًا هـائلا مـن عطاشـى العلـوم والفنـون إلى يومنا هذا، فكانوا نسيم الربيع ونشروا رائحة علمها في أكنـاف العـالم الأربعـة. والـذين اسـتفادوا مـن دارالعلـوم/ديوبنـد أشـبه بالـشجرة الظليلة التي يعز إحصاء أغصانها وأوراقها الخضراء.

وظلت دارالعلوم منذ أول يوم أسست تجمع بين الشريعة والطريقة، فما تلمع من الأقمار والنجوم في أفق الشريعة والطريقة والعلم والعمل معظمها مما استنار من هـذه الـشمس البازغـة. و ابتلـت عروقهـا من ينبوع العلم والعرفان هذا. وغير خافٍ على أحد أن معظـم العلـماء في شـبه القـارة الهنديـة قـد اسـتفادوا العلم من هذه المدرسة. ويتواجد في كثير من الدول الآسيوية ممـن اقتـاتوا مـن فتـات دارالعلـوم/ديوبنـد، الذين أناروا مصابيح الكتاب والسنة في شبه القارة الهنديـة وفي كثـير مـن الـدول خارجهـا. ويـستفيض منهم عدد لايحصى من البشر الرشد والهدى.

ولقـد لعبـت دارالعلـوم دورًا كبـيرًا في إضـفاء الطراوة والصفاء على أفكار المسلمين وأنظارهم؛ و أورثـت قلـوبَهم العزيمـة والهمـة؛ وأجسادَهم القـوة والطاقـة. ففيوضـها ونفحاتهـا عامـة ممـدودة. ولقـد سـقى بهـا الغلـة العلميـة مـن لايحـصون عـددًا، ممـن فقـدوا الأسـباب التـي تحقـق رغبـاتهم وأشـواقهم العلمية. كما تفجر كثير من الينابيع العلمية والدينية حـذو دارالعلـوم/ديوبنـد، وكـل يبنـوع منهـا لـه نطـاق خـاص مـن الإفـادة والإفاضـة والنفـع. وهـؤلاء كلهـا تـشكل نجومًـا في هـذا النظـام الشمسي، أنـارت كـل ناحية من نواحي حياة المسلمين الدينية والعلمية في شبه القارة الهندية.

وقلـما اعتنـوا بهـذا الجانـب مـن فوائـد وفيـوض هـذه المـدارس الدينيـة، وهـو أنهـا أصـلحت أحـوال مئـات الآلاف مـــن البيوتـــات الإســـلامية، وزال الـشعور بالـدون عـن المـسلمين، ووفـرت للأمـة مالايحـصى مـن الأفـراد والأعـضاء قـاموا بإرشـاد

المسلمين في مختلف نواحي حياتهم حسب متطلبات العصر والزمان. وأيقضوا – علاوة على الخدمات العظيمة في إحياء الإسلام- في المسلمين الوعي السياسي، و شاركوا في جهود تحرير البلاد مشاركةً قياديةً، وبالتالي تحررت بلاد شبه القارة الهندية.

ونظرًا إلى ما قام به دارالعلوم من خدمات غالية للإسلام والعلوم الدينية، والمسلمين، من المرجو أنها تواصل في المستقبل أيضًا إبراز قوة العمل في المسلمين، وتقوية إيمانهم، والقيام بواجب الدعوة إلى الإسلام.

ورغم أن سحاب دارالعلوم الفائض مستمر في الإمطار على العالم الإسلامي منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري إلا أن كثيرًا من الناس لم يقفوا بعد على أحوال دارالعلوم/ديوبند. وكان من دأب السلف دائما أنهم – بدلا من أن يطبِّلوا لأعمالهم ومنجزاتهم- وضعوا نصب أعينهم روح العمل، واكتفوا في ذلك بنشر التقارير السنوية، ولم يستهدفوا من وراء ذلك إلا إطلاع أنصار دار العلوم وحماتها على الوجوه التي تصرف فيها تبرعاتهم، وكذلك على النتائج التعليمية لأبنائهم الذين وكلوهم إليها. فكانت العناية في التقارير مركزة على ذكر الموارد والمصارف والنتائج التعليمية للطلاب. وإنما تتطرق إلى أهم الأحداث في تلك السنوات عرضًا وتبعًا.

وهذه الأحداث في حياة دارالعلوم/ديوبند الطويلة مبثوثة في التقارير السنوية بصورة يعز معها الاستفادة منها.

وأول من برز لتدوين تاريخ دارالعلوم/ديوبند هو الشيخ المقرئ محمد طيب حفظه الله – رئيس دارالعلوم-؛ فقد عمل كتابًا موجزًا في عام ١٣٨٥هـ سماه «دارالعلوم في قرن من الزمان». وتناول هذا الكتاب تأسيس دارالعلوم، وأحوال وكيفيات شؤونها التعليمية والدعوية والإدارية بصورة موجزة. ولكن الحاجة كانت ماسة إلى تفصيل أهم أحداث تاريخ دارالعلوم، وذلك بهدف توفير المواد لتاريخ المسلمين في الهند. ومن متطلباته أن يتولى تدوين تاريخ دارالعلوم جماعة متقنة من المؤلفين، وتقدم المساعي المشتركة بعد الجد والتحقيق. وصادف أن اختار المجلس الاستشاري لدارالعلوم في شعبان عام ١٣٩١هـ لهذا العمل رجلا قليل العلم والبضاعة، وأخرق مثلي. ثم لا يغيبن عن البال أن هذا العمل خطوة أولى، لابد أن يتسرب إليها الأخطاء والهنات.

ولايخلو عمل من أعمال البشر من الأخطاء والتقصيرات. فلا يسعني أن أدعي أن «تاريخ دارالعلوم» شيء متكامل أو قول فصل في هذا الباب، ثم إنه خطوة أولى في هذه السبيل. وإنما

جمعت الأحوال المنتشرة والمبثوثة لدارالعلوم حسب وسعي في مكان، وهذه الأحداث أشبه بأوراق منتشرة لكتاب من الكتب، وإنما جمعتها في تأليف مقدم إليكم. وهذا العمل العظيم كان يفوق قوة شخص واحد، وكان المفروض أن يقوم به هيئة من الهيئات، فلابد أن يكون قد تطرق إليه الهنات والنقائص التي يعتذر عنها كاتب هذه السطور. والذي يبعث في نفسي الطمانينة والراحة كما قال الشاعر الأردي ما معناه:

«ما كان حسن المعنى في حاجة إلى أن أتولى تزيينه وتنميقه.

فإن الطبيعة بدورها تقوم بخضب الأوراد».

أن ما تبقى من التسجيل فيه أو بقي عابرًا أو مبتورًا فإن الطبعة التالية تتفاداه.

ولايفوتني أن أشير إلى أن دارالعلوم في تاريخها الطويل مرت بحركات ومؤسسات كثيرة، ومن الطبيعي أن تختلف انطباعات بعضهم من بعض، وفي مثل هذه المواضع حاول المؤلف أن يتمسك بأهداف العدل والإنصاف، فعالج الأحداث المختلف فيها بكل حذر وحيطة. وحاول أن يمرَّ بمثل هذه المواضع مرورًا أسرع ما يمكن؛ فإنه لافائدة من سرد الفروع والتفصيلات لها بعد أن أكل عليها الدهر وشرب. ولم يتعرض لها إلا لسرد القصة بالإيجاز والاختصار.

ومصادر المواد المدرجة في تاريخ دارالعلوم هي التقارير الدورية. وبعضها ترجع إلى الأحوال اليومية ومشاهداتي الشخصية. وحيث استفدت من مصدر آخر فقد عزوت إليه، فإن عقل القارئ يرتاح لحد كبير إلى الحدث. كما يتوفر لكل واحد فرصةُ معرفة مدى قيمة الرواية ومكانتها هل هي معتبرة أم لا؟ ومن فوائد العزو والإحالة الكبرى التي وضعتها نصب عيني- علاوة على ذلك- تعريف القارئ بالمصادر الكثيرة في هذا الموضوع، وتيسير العمل عليها فيما بعد لمن شاءه. فكأنه باب انفتح إليه، وأصبح من النهر مخاض له، فمن شاء فليسلك هذا الطريق.

وبالنسبة للأحوال والأحداث سردت نصوص التقارير الدورية بفصها حينًا، وذكرت معناها بعبارة من عندي حينًا آخر، بالنظر إلى التفاوت في المواضع والمناسبات. وذلك اتباعًا للفكرة القائلة بأنه يجب أن يكون عقل القارئ أقرب إلى النص وأسلوبه. فيدرك أسلوب تفكير المؤلف وأدائه، ويستفيد منه ما أمكن.

ولايخفى على أحد أن معالجة موضوع بكر من الصعوبة بمكان. وتجرأ كاتب هذه السطور على تجاوز هذه العقبة في هذا الجبل الوعر، والنجاح

والتوفيق بيد الله تعالى. ولأهل الفكر والنظر أن يقدروا المتاعب التي لاقيتها في تدوين تاريخ دارالعلوم، فهذا ما استطعت تقديمه، وأنا آمل يقينًا أن سعيي هذا يذلل الطريق على العاملين في هذا الموضوع في المستقبل. وسيكون الأثر التالي أحسن من الأول إذا ما حالفني التوفيق الإلهي.

وقمت بتوزيع تاريخ دارالعلوم على عدد من الأبواب، وحاولت ترتيب كل باب ترتيبًا يمكن معه فصل كل باب من الباب السابق والباب اللاحق واعتباره كتابًا بمفرده. فربما يشعر القارئ في بعض المواضع بنوع من التكرار والإعادة، ولكن الالتزام السابق كان يحتم ذلك.

ويعلم الله تعالى مدى نجاح كاتب هذه السطور في مسعاه هذا، غير أنه حاول تقديم صورة من أحوال وأحداث دارالعلوم، يتجلى فيها هدف حركة دارالعلوم،ويتبين نجاح الأهداف التي برزت دار العلوم للوجود لتحقيقها. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

وواظبت دارالعلوم من أول يومها إلى يومنا هذا على التقيد بالسنوات الهجرية، وهذا ما سارت عليه تاريخنا القديم. ثم انتشرت السنوات الميلادية منذ القرن التاسع عشر الميلادي، فذكرت السنوات الهجرية والميلادية معًا. والتزمت في إدراجها أني جعلت العدد المنقول من السنوات أصلا و سجلتها فوق السنوات الأخرى. ونظرًا إلى ذلك سجلت في معظم المواضع السنوات الهجرية فوق الميلادية، وربما سجلت السنوات الميلادية فوق الهجرية. وبهذا الالتزام يتبين للقارئ بأيسر وجه السنةُ الأصلية من غيرها، وهي الأجدر بالملاحظة والاعتبار.

وأقدم الشكر من أعماق القلب إلى كل من حكيم الإسلام مولانا المقرئ محمد طيب حفظه الله-رئيس دارالعلوم/ديوبند-، ومولانا القاضي زين العابدين سجاد، ومولانا سعيد أحمد الأكبر آبادي عضو المجلس الاستشاري. فقد كان من الصعوبة بمكان استكمال تاريخ دارالعلوم/ ديوبند لولا الإشارات الغالية من هؤلاء. فجزاهم الله تعالى خير الجزاء، والأجر الجزيل، ووفقني للاستفادة من هؤلاء في المستقبل أيضًا.

وتحمل حكيم الإسلام مولانا محمد طيب حفظه الله – رغم كبر سنه وضعفه- كتابةَ المقدمة الغالية على كتاب «تاريخ دارالعلوم/ديوبند»، ويعكس ذلك شفقةً كبرى، ورحمةً بالصغار، تفوق شكر كاتب هذه السطور.

السيد محبوب الرضوى

١٣/رجب عام ١٣٩٦هـ = ٢٢/يوليو عام ١٩٧٦م

صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(سورة آل عمران ١٧٠-٢٠٠، سورة النساء ١-٢٧)

بقلم: أبو عائض المباركفوري

١- قال الله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٠-١٧١]

في الآية بدهيتان:

الأولى:

فإن قيل: أليس أنه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار؟ فما الفائدة في ذلك؟ قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: أن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار. ذكره الرازي[١].

الثاني: لعل المراد حصول الفرح بما حصل في الحال، وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة. ذكره الرازي[٢].

الثانية:

فإن قيل: ما فائدة إعادة فعل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقد سبق؟

والجواب من وجوه:

الأول: أعاد لفظ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة. فقد اختلف متعلق الفعلين فلا تكرار. ذكره الرازي، وأبوالسعود، والآلوسي، والشوكاني، واستظهره أبوحيان[٣].

الثاني: كرر الفعل على سبيل التوكيد إن كانت النعمة والفضل بيانا لمتعلق الاستبشار الأول، قال الزمخشري: وكرّر ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ليعلق به ما هو بيان لقوله: ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من ذكر النعمة والفضل، وأن ذلك أجر لهم على إيمانهم يجب في عدل الله وحكمته أن يحصل لهم ولا يضيع[٤].

وتعقبه أبو حيان فقال: وهو على طريقة الاعتزال، في ذكره وجوب الأجر وتحصيله على إيمانهم. وسلك ابن عطية طريقة أهل السنة فقال: أكد استبشارهم بقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ثم بين بقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ إدخالهم الجنة الذي هو فضل منه، لا بعمل أحد، وأماالنعمة في الجنة والدرجات

فقد أخبر أنها على قدر الأعمال، انتهى[٥].

الثالـــث: الاستبـــشارالأول بـــدفع المـــضار والاستبشار الثاني بوجود المسار. ذكره الآلوسي[٦].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٦]

فإن قلت: هلا قيل: لا يجعل الله لهم حظًا في الآخرة، وأيّ فائدة في ذكر الإرادة؟

قلت: فائدته الإشعار بأنّ الداعي إلى حرمانهم وتعذيبهم قد خلص خلوصًا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا في الكفر، تنبيهًا على تماديهم في الطغيان وبلوغهم الغاية فيه، حتى أنّ أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم. ذكره الزمخشري[٧].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٧٧]

فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٦] ثم قال في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران:١٧٧] فما الفائدة في هذا التكرار؟

قلنا: ذكروا فيه أقوالا:

القول الأول: أن يكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عاما في الكفار كلهم، وقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ كان عاما على سبيل التوكيد. ذكره الزمخشري، وأبوحيان، وأبو السعود، والآلوسي، والشوكاني ورجحه[٨].

وقال الرازي - وهو يعدد فوائد تكرار هذه الآية: واعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [آل عمران:١٧٦] وقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ والفائدة في هذا التكرار أمور:

أحدها: أن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لا شك أنهم كانوا كافرين أولا، ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك، وهذا يدل على شدة الاضطراب وضعف الرأي وقلة الثبات، ومثل هذا الإنسان لا خوف منه ولا هيبة له ولا قدرة له البتة على إلحاق الضرر بالغير.

وثانيها: أن أمر الدين أهم الأمور وأعظمها، ومثل هذا مما لا يقدم الإنسان فيه على الفعل أو على الترك إلا بعد إمعان النظروكثرة الفكر، وهؤلاء يقدمون على الفعل أو على الترك في مثل هذا المهم العظيم بأهون الأسباب و أضعف الموجبات، وذلك يدل على قلة عقلهم وشدة حماقتهم، فأمثال هؤلاء لا يلتفت العاقل اليهم.

وثالثها: أن أكثرهم إنما ينازعونك في الدين، لا بناء على الشبهات؛ بل بناء على الحسد والمنازعة في منصب الدنيا، ومن كان عقله هذا القدر، وهوأنه يبيع بالقليل من الدنيا السعادة العظيمة في الآخرة كان في غاية الحماقة، ومثله لا يقدر على إلحاق الضرربالغير، فهذا هو الفائدة في إعادة هذه الآية، والله أعلم بمراده(٩).

القول الثاني: قوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ إن كان خاصا بالمنافقين أو المرتدين أو كفار قريش فيكون ليس تكريرًا على سبيل التوكيد؛ بل حكم على العام بأنهم لن يضروا الله شيئًا. ويندرج فيه ذلك الخاص أيضًا. فيكون الحكم في حقهم على سبيل التأكيد. ويكون قد جمع للخاص العذاب بنوعيه من العظم والألم. و هو أبلغ في حقهم في العذاب. ذكره الزمخشري، وأبوحيان، وأبوالسعود، و الآلوسي، والشوكاني(١٠).

القول الثالث: جوز الزمخشري أن يكون الأول عامًا للكفار وهذا خاصًا بالمنافقين، وأفردوا بالذكر لأنهم أشدّ منهم في الضرر والكيد(١١).

وتعقبه أبوالسعود فقال: إن إرادة العام هناك مما لا يليق بفخامة شأن التنزيل لما أن صدور المسارعة في الكفر بالمعنى المذكور وكونها مظنة لإيراث الحزن لرسول الله ﷺ كما يفهم من النهي عنه إنما يتصور ممن علم اتصافه بها، وأما من لا يعرف حاله من الكفرة الكائنين في الأماكن البعيدة فإسناد المسارعة المذكورة إليهم واعتبار كونها من مبادىء حزنه عليه الصلاة والسلام مما لا وجه له(١٢).

ودافع الآلوسي عن هذا القول فقال: ويمكن أن يقال: إن القائل بالعموم في الأول لم يرد بالكفار مقابل المؤمنين حيث كانوا وعلى أي حال وجدوا؛ بل ما يشمل المتخلفين والمرتدين مثلًا ممن يتوقع إضرارهم له ﷺ وحينئذ لايرد هذا الاعتراض(١٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧]

فإن قيل: البيان يضاد الكتمان، فلما أمر بالبيان كان الأمر به نهيًا عن الكتمان، فما الفائدة في النهي عن الكتمان؟

قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: المراد من البيان ذكر تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ من التوراة والانجيل، والمراد من النهي عن الكتمان أن لا يلقوا فيها التأويلات الفاسدة والشبهات المعطلة. ذكره الرازي، وأبوالسعود، والآلوسي(١٤).

الثاني: صرح به للمبالغة في إيجاب المأمور به. ذكره أبوالسعود والآلوسي(١٥).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْـلِ وَٱلنَّهَـارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠].

فإن قلت: ذكر هذه الآية في سورة البقرة ثم أعاد ذكرها هنا، فما الفائدة في إعادة الآية الواحدة باللفظ الواحد في سورتين؟

أثار هذا السؤال - وأسئلة أخرى - الرازي وأجاب عنه فقال: «فأقول: والله أعلم بأسرار كتابه: إن سويداء البصيرة تجري مجرى سواد البصر فكما أن سواد البصر لا يقدر أن يستقصي في النظر إلى شيئين؛ بل إذا حدق بصره نحو شيء تعذر عليه في تلك الحالة تحديق البصر نحو شيء آخر، فكذلك ههنا إذا حدق الإنسان حدقة عقله نحو ملاحظة معقول امتنع عليه في تلك الحالة تحديق حدقة العقل نحو معقول آخر، فعلى هذا كلما كان اشتغال العقل بالالتفات إلى المعقولات المختلفة أكثر، كان حرمانه عن الاستقصاء في تلك التعقلات والإدراكات أكثر، فعلى هذا: السالك إلى الله لا بد له في أول الأمر من تكثيرالدلائل، فإذا استنار القلب بنور معرفة الله صار اشتغاله بتلك الدلائل كالحجاب له عن استغراق القلب في معرفة الله، فالسالك في أول أمره كان طالبا لتكثير الدلائل، فعند وقوع هذا النور في القلب يصيرطالبا لتقليل الدلائل، حتى إذا زالت الظلمة المتولدة من اشتغال القلب بغير الله كمل فيه تجلي أنوار معرفة الله، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢] والنعلان هما المقدمتان اللتان بهما يتوصل العقل إلى المعرفة، فلما وصل إلى المعرفة أمر بخلعهما، وقيل له: إنك تريد أن تضع قدميك في وادي قدس الوحدانية فاترك الاشتغال بالدلائل.

إذا عرفت هذه القاعدة، فذكر في سورة البقرة ثمانية أنواع من الدلائل، ثم أعاد في هذه السورة ثلاثة أنواع منها، تنبيهًا على أن العارف بعد صيرورته عارفًا لا بد له من تقليل الالتفات إلى الدلائل ليكمل له الاستغراق في معرفة المدلول، فكان الغرض من إعادة ثلاثة أنواع من الدلائل وحذف البقية، التنبيه على ما ذكرناه، ثم إنه تعالى استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية وحذف الدلائل الخمسة الباقية، التي هي الدلائل الأرضية، وذلك لأن الدلائل السماوية أقهروأبهر و العجائب فيها أكثر، و انتقال القلب منها إلى عظمة الله وكبريائه أشد، ثم ختم تلك الآية بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وختم هذه الآية بقوله: ﴿لِأُو۟لِى الألباب﴾؛ لأن العقل له ظاهروله لب، ففي أول الأمر يكون عقلا، وفي كمال الحال يكون لبا، وهذا أيضا يقوي ما ذكرناه، فهذا ما خطر بالبال، والله أعلم بأسرار كلامه العظيم الكريم الحكيم(١٦).

٦- قال الله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣]

في الآية عدة بدهيات:

الأولى:

فإن قيل: ما الفائدة في الجمع بين «مناديا» و«ينادي»؟

قلنا: ذكر النداء مطلقًا ثم مقيدًا بالإيمان تفخيمًا لشأن المنادي، لأنه لا منادي أعظم من مناد ينادي للإيمان، ونظيره قولك: مررت بهاد يهدي للإسلام، وذلك لأن المنادي إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحرب، أولإطفاء النائرة، أولإغاثة المكروب، أوالكفاية لبعض النوازل، وكذلك الهادي قد يطلق على من يهدي للطريق، ويهدي لسداد الرأي، فإذا قلت: ينادي للإيمان ويهدي للإسلام فقد رفعت من شأن المنادي والهادي وفخمته. ذكره الزمخشري، والرازي، و أبوحيان، وأبو السعود، والشوكاني[١٧].

الثانية:

فإن قلت: المغفرة والتكفير في اللغة معناهما واحد، فمافائدة الجمع بينهما؟

قلنا: ذكروا فيه وجوها:

أحدها: أن المراد بهما شيء واحد، وإنما أعيد ذلك للتأكيد؛ لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب. ذكره الرازي، وأبوحيان، وابن عاشور[١٨].

ثانيها: المراد بالأول ما تقدم من الذنوب، وبالثاني المستأنف. ذكره الرازي[١٩].

ثالثها: أن يراد بالغفران ما يزول بالتوبة، وبالكفران ما تكفره الطاعة العظيمة. ذكره الرازي[٢٠].

رابعها: أن يكون المراد بالأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصيةً وذنبًا، وبالثاني: ما أتى به الإنسان مع جهله بكونه معصيةً وذنبًا. ذكره الرازي[٢١].

خامسها: الغَفْروالتكفير متقاربان في المادة المشتقيْن منها إلاّ أنّه شاع الغفروالغفران في العفو عن الذنب والتكفير في تعويض الذنب بعوض، فكأنّ العوض كفّر الذنب أي ستره، ومنه سمّيت كفّارة الإفطار في رمضان. وكفّارة الحنث في اليمين إلاّ أنهم أرادوا بالذنوب ماكان قاصرًا على ذواتهم، ولذلك طلبوا مغفرته، وأرادوا من السيّئات ما كان فيه حقّ الناس، فلذلك سألوا تكفيرها عنهم. ذكره ابن عاشور، وأبوحيان و الآلوسي[٢٢].

الثالثة:

فإن قيل: الذنوب والسيئات واحد، فما فائدة التكرار؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: ﴿ذُنُوبَنَا﴾ أي كبائرنا ﴿وَكَفِّرْ عَنَّاسَيِّئَاتِنَا﴾ أي صغائرناويؤيده قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١] وهو التفسير المأثور عن ابن عباس، وأيد بأنه المناسب للغة؛ لأن الذنب مأخوذ من

الذنب بمعنى الذيل، فاستعمل فيما تستوخم عاقبته وهو الكبيرة لما يعقبها من الإثم العظيم، ولذلك تسمى تبعةً اعتبارا بما يتبعها من العقاب كما صرح به الراغب، وأما السيئة فمن السوء وهو المستقبح ولذلك تقابل بالحسنة فتكون أخف. ذكره الزمخشري، و أبوحيان، وأبوالسعود والآلوسي[٢٣].

الثاني: قيل: الأول ما أتى به الإنسان مع العلم بكونه معصية، والثاني ما أتى به مع الجهل بذلك. ذكره الآلوسي[٢٤].

الثالث: قيل: المراد من الذنوب ما تقدم من المعاصي، ومن السيئآت ما تأخر منها. ذكره الآلوسي[٢٥].

الرابع: الذنوب ترك الطاعات والسيئات فعل المعاصي. ذكره أبوحيان[٢٦].

الخامس: قيل: الذنوب والسيئات بمعنى، وجمع بينهما تأكيدًا ومبالغة، وليكون في ذلك إلحاح في الدعاء. فقد روي: «إن الله يحب الملحين في الدعاء». ذكره أبو حيان[٢٧].

٧- قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤].

في الآية بدهيتان:

الأولى:

من المعلوم أن الخلف في وعد الله محال، فكيف طلبوا بالدعاء ما علموا أنه لا محالة واقع؟

والجواب من وجوه:

الأول: أنه ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل؛ بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية، وقد أمرنا بالدعاء في أشياء نعلم قطعًا أنها توجد لا محالة، كقوله: ﴿قُلۡ رَّبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢]، وقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧]. ذكره الرازي، وأبوحيان، وأبوالسعود، والآلوسي، وابن عاشور[٢٨].

والوجه الثاني في الجواب: أن وعد الله لا يتناول آحاد الأمة بأعيانهم؛ بل إنما يتناولهم بحسب أوصافهم، فإنه تعالى وعد المتقين بالثواب، ووعد الفساق بالعقاب، فقوله: ﴿وَءَاتِنَا مَا وعدتنا﴾ معناه: وفقنا للأعمال التي بها نصير أهلا لوعدك، واعصمنا من الأعمال التي نصير بها أهلا للعقاب والخزي، وعلى هذا التقدير يكون المقصود من هذه الآية طلب التوفيق للطاعة والعصمة عن المعصية. ذكره الرازي، و الزمخشري، وابن عاشور، وأبوحيان، وأبوالسعود، والآلوسي[٢٩].

الوجه الثالث: أن الله تعالى وعد المؤمنين بأن ينصرهم في الدنياويقهر عدوهم، فهم طلبوا تعجيل ذلك، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال. ذكره الطبري، والرازي والآلوسي[٣٠].

وذكره ابن عاشور وقال: وهذاكقول خباب ابن الأرت: هاجرنا مع النبي نلتمس وجه الله فوقع

أجرنا على الله فمنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها، ومنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا، منهم مصعب ابن عمير قتل يوم أحد فلم نجد له ما نكفنه إلا برده»(٣١).

الوجه الرابع: قال أبوحيان: أجاب القرافي في الفرق (٢٧٣) بأنّهم سألوا ذلك لأنّ حصوله مشروط بالوفاة على الإيمان، وقد يؤيّد هذا بأنّهم قدّموا قبله قولهم: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ لكن هذا الجواب يقتضي قصر الموعود به على ثواب الآخرة، وأعادوا سؤال النجاة من خزي يوم القيامة لشدّته عليهم(٣٢).

الوجه الخامس: أنّهم سألوا ذلك ليكون حصوله أمارة على حصول قُبول الأعمال التي وعد الله عليها بما سألوه فقد يظنّون أنفسهم آتين بما يبلّغهم تلك المرتبة ويخشون لعلّهم قد خلطوا أعمالهم الصالحة بما يبطلها، ولعلّ هذا هو السبب في مجيء الواو في قولهم: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ دون الفاء إذ جعلوه دعوةً مستقلّةً لتتحقّق ويتحقّق سببها، ولم يجعلوها نتيجة فعل مقطوع بحصوله. ويدلّ لصحّة هذا التأويل قوله بعدُ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم﴾ [آل عمران:١٩٥] مع أنّهم لم يطلبوا هنا عدم إضاعة أعمالهم. ذكره أبوحيان(٣٣).

الثانية:

من المعلوم أنه متى حصل الثواب كان اندفاع العقاب لازمًا لا محالة. فقوله: ﴿ءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ طلب للثواب فبعد طلب الثواب كيف طلب ترك العقاب وهو قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بل لو طلب ترك العقاب أولا ثم طلب إيصال الثواب كان الكلام مستقيما؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم والسرورفقوله: ﴿ءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ المراد منه المنافع، وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ المراد منه التعظيم. ذكره الرازي، والآلوسي(٣٤).

الوجه الثاني: أن المقصود من هذه الآية طلب التوفيق على الطاعة والعصمة عن المعصية، وعلى هذا التقدير يحسن النظم كأنه قيل: وفقتنا للطاعات، وإذا وفقتنا لها فاعصمنا عما يبطلها ويزيلها و يوقعنا في الخزي والهلاك، والحاصل كأنه قيل: وفقنا لطاعتك فإنا لا نقدر على شيء من الطاعات إلا بتوفيقك، وإذا وفقت لفعلها فوفقنا لاستبقائها فإنا لا نقدر على استبقائها و استدامتها إلا بتوفيقك، وهو إشارة إلى أن العبد لا يمكنه عمل من الأعمال، ولا فعل من الأفعال، ولا لمحة ولا حركة إلا بإعانة الله و توفيقه. ذكره الرازي(٣٥).

الوجه الثالث: أنهم طلبوا الثواب أولًا باعتبار أنه يندفع به العذاب الجسماني، ثم طلبوا دفع العذاب الروحاني بناءً على أن الخزي الإهانة والتخجيل،

فيكون في الكلام ترق من الأدنى إلى الأعلى كأنهم قالوا: ربنا ادفع عنا العذاب الجسماني وادفع عنا ما هو أشدّ منه وهو العذاب الروحاني. ذكره الآلوسي(٣٦).

الوجه الرابع: أن المراد من الأول الدعاء بالنصر في الدنيا؛ فإن عدم الإغناء عليه ظاهر؛ بل في الجمع بين الدعاءين حينئذ لطافة؛ إذ مآل الأول لا تحزنا في الدنيا بغلبة العدو علينا فكأنهم قالوا: لا تحزنا في الدنيا ولا تحزنا في الآخرة، وغايروا في التعبير فعبروا عن طلب كل من الأمرين بعبارة للاختلاف بين المطلوبين أنفسهما. ذكره الآلوسي(٣٧).

انتهت سورة آل عمران

٤- سورة النساء

١- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١).

في الآية بدهيتان:

الأولى:

فإن قلت: إنه تعالى قال أولا: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فما فائدة التكرار؟

قلنا: في هذا التكرير وجوه:

الأول: تأكيد الأمر والحث عليه كقولك للرجل: اعجل اعجل، فيكون أبلغ من قولك: اعجل. ذكره الرازي، وأبوحيان، والقرطبي، والآلوسي(٣٨).

الثاني: أنه أمر بالتقوى في الأول لمكان الإنعام بالخلق وغيره، وفي الثاني أمر بالتقوى لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض. ذكره الرازي، وأبوحيان(٣٩).

وذكره أبوالسعود فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكريرٌ للأمر وتذكيرٌ ببعض آخَرَ من موجبات الامتثالِ به فإن سؤالَ بعضِهم بعضًا بالله تعالى بأن يقولوا: أسألُك بالله وأنشُدك اللَّهَ على سبيل الاستعطافِ يقتضي الاتقاءَ من مخالفة أوامرِه ونواهيه، وتعليقُ الاتقاءِ بالاسمِ الجليلِ لمزيد التأكيدِ و المبالغةِ في الحمل على الامتثال بتربية المهابةِ و إدخالِ الروعةِ، ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته(٤٠).

الثالث: قال أولا: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ وقال ثانيا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ والرب لفظ يدل على التربية والإحسان، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فأمرهم بالتقوى بناءً على الترغيب، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب كما قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦] وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبياء:٩٠] كأنه قيل: إنه رباك وأحسن إليك فاتق مخالفته؛ لأنه شديد العقاب عظيم السطوة. ذكره الرازي(٤١).

الرابع: وأعيد فعل ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: لأنّ هذه التقوى مأمور بها المسلمون خاصّة، فإنّهم قد بقيت فيهم بقية من عوائد الجاهلية لا يشعرون بها، وهي التساهل في حقوق الأرحام والأيتام. ذكره ابن عاشور(٤٢).

الثانية:

فإن قلت: ما فائدة إعادة الفعل(خلق) مع جواز عطفِ مفعوله على مفعول الفعلِ الأول؟

فالجواب ما ذكره أبوالسعود فقال: وإعادةُ الفعلِ مع جواز عطفِ مفعوله على مفعول الفعلِ الأول كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الخ لإظهار ما بين الخلقين من التفاوت، فإن الأولَ بطريق التفريعِ من الأصل، والثاني بطريق الإنشاءِ من المادة، فإنه تعالى خلقَ حواءَ من ضِلْعِ آدمَ عليه السلام(٤٣).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ [النساء:٢].

فإن قيل: إنه تعالى لما حرم عليهم أكل أموال اليتامى ظلما في الآية الأولى المتقدمة دخل فيها أكلها وحدها وأكلها مع غيرها، فما الفائدة في إعادة النهي عن أكلها مع أموالهم؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من حلال وهم مع ذلك يطمعون في أموال اليتامى، كان القبح أبلغ والذم أحق. ذكره الزمخشري، والرازي(٤٤).

الثاني: لأنهم كانوا يفعلون كذلك فنعى عليهم فعلهم وَسَمّع بهم؛ ليكون أزجر لهم. ذكره الزمخشري(٤٥).

وقال أبوحيان: وملخصه أن قوله: (إلى أموالكم) ليس قيدًا للاحتراز، إنما جيء به لتقبيح فعلهم، ولأن يكون نهيًا عن الواقع، فيكون نظيرقوله: ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ وإن كان الربا على سائر أحواله منهيًا عنه(٤٦).

الثالث: ما ذكره أبوحيان فقال: وحكمة: (إلى أموالكم) وإن كانوا منهيين عن أكل أموال اليتامى بغير حق، أنه تنبيه على غنى الأولياء. كأنه قيل: ولا تأكلوا أموالهم مع كونكم ذوي مال أي: مع غناكم، لأنه قد أذن للولي إذا كان فقيرًا أن يأكل بالمعروف، وعليه يكون ذلك قيدًا للاحتراز؛ فإنه إذا كان الولي فقيرا جاز أن يأكل بالمعروف فيكون النهي منسحبا على أكل مال اليتيم لمن كان غنيا كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾(٤٧).

الرابع: أنه للتأكيد، قال ابن عاشور: وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ نهي ثالث عن أخذ أموال اليتامى وضمّها إلى أموال أوليائهم، فيتسق في الآية أمرونهيان: أمروا أن لا يمنعوا اليتامى من مواريثهم ثم نهوا عن اكتساب الحرام،

ثـم نهـوا عـن الاسـتيلاء عـلى أمـوالهم أو بعـضها، والنهي والأمر الأخيرتأكيدان للأمرالأول(٤٨). وإلى التأكيد ذهب أبوالسعود(٤٩).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء:١٠]

فإن قلت: الأكل لا يكون إلا في البطن فما فائدة قوله: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: أنه كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [آل عمران:١٦٧] والقول لا يكون إلا بالفم، وقال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] والقلب لا يكون إلا في الصدر، و قال: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨] والطيران لا يكون إلا بالجناح، و الغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة. ذكره الرازي، والآلوسي(٥٠).

الثاني: معناه: ملء بطونهم يقال: أكل فلان في بطنه وفي بعض بطنه. وشاع هذا التعبير في ذلك، وكأنه مبني على أن حقيقة الظرفية المتبادر منها الإحاطة بحيث لا يفضل الظرف عن المظروف فيكون الأكل في البطن ملء البطن، وفي بعض البطن دونه، وهو المراد في قوله:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا

فإن زمانكم زمن خميص

ونبّه بقوله: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ على نقصهم، ووصفهم بالشره في الأكل، والتهافت في نيل الحرام بسبب البطن. وأين يكون هؤلاء من قول الشاعر:

تراه خميص البطن والزاد حاضر(٥١).

وقول الشنفري:

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

كما نبّه على الحامل على أخذ المال وهو البطن الذي هو أخس الأشياء التي ينتفع بالمال لأجلها؛ إذ مآل ما يوضع فيه إلى الاضمحلال والذهاب في أقرب زمان. ولذلك قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ». ذكره أبوحيان والنسفي، والزمخشري، و البيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي، وابن الجوزي(٥٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾.[النساء:١١]

في الآية بدهيات:

الأولى:

فإن قلت: النساء: جمع، وأقل الجمع ثلاثة، فالنساء يجب أن يكن فوق اثنتين، فما الفائدة في التقييد بقوله: (فَوْقَ اثنَتَينِ)؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: من يقول: أقل الجمع اثنان فهذه الآية حجته، ومن يقول: هو ثلاثة قال: هذا للتأكيد، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠] وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل:٥١]. فهو صفة ل- «نساء» والخبرنساء بصفته التي هي (فوق اثنتين) لأنه لا تستقل فائدة الإخبار بقوله: (نساء) وحده، وهي صفة للتأكيد ترفع أن يراد بالجمع قبلها طريقُ المجاز، إذ قد يطلق الجمع ويراد به التثنية. وأجاز الزمخشري أن يكون (نساء) خبرًا ثانيًا، لكان، «فقال: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾: يجوز أن يكون خبرًا ثانيًا لكان وأن يكون صفة لنساء أي نساء زائدات على اثنتين. وتبعه النسفي.

ورده أبوحيان، فقال: وليس بشيء؛ لأن الخبر لا بد أن تستقل به فائدة الإسناد. ولو سكت على قوله: (فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً) لكان نظيرأن كان الزيدون رجالًا، وهذا ليس بكلام(٥٣).

ورد الآلوسي ما قاله أبوحيان فقال: على أن قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ إذا جعل صفة لنساء فهو محل الفائدة، وأوجب ذلك أبو حيان فلم يجزما أجازه غير واحد من كونه خبرًا ثانيا ظنا منه عدم إفادة الحمل حينئذٍ، وهو من بعض الظن كما علمت(٥٤).

وقال الزمخشري: (فإن قلت): هل يصح أن يكون الضميران في (كن) و(كانت) مبهمين، ويكون (نساء) و(واحدة) تفسيرًا لهما على أن «كان» تامّة؟ (قلت): لا أبعد ذلك انتهى. و نعني بالإبهام أنهما لا يعودان على مفسر متقدّم؛ بل يكون مفسرهما هو المنصوب بعدهما، وهذا الذي لم يبعده الزمخشري هو بعيد، أوممنوع البتة؛ لأن (كان) ليست من الأفعال التي يكون فاعلها مضمرًا يفسره ما بعده؛ بل هو مختص من الأفعال بنعم وبئس وما حمل عليهما، وفي باب التنازع على ما قرر في النحو(٥٥). ورده الآلوسي(٥٦).

الثاني: أنّ «فوق» زائدة مستدلًا بأن «فوق» قد زيدت في قوله: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾. ذكره البغوي(٥٧).

وتعقبه ابن عاشور فقال: وشتَّان بين فوق التي مع أسماء العدد وفوق التي بمعنى مكان الفعل.

ورده أبوحيان - أيضًا- قائلا: فلا يحتاج في ردّ ما زعم إلى حجة لوضوح فساده(٥٨).

الثانية:

فإن قلت: ما فائدة الإبدال في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾، وهلا قيل: ولأبويه

السدس؟

قلنا: فائدة هذا البدل أنه لو قيل: ولأبويه السدس، لكان ظاهره اشتراكهما فيه. ولوقيل: ولأبويه السدسان، لأوهم قسمة السدسين عليهما على التسوية وعلى خلافها. فإن قلت: فهلا قيل: ولكل واحد من أبويه السدس، وأي فائدة في ذكر الأبوين أوّلًا، ثم في الإبدال منهما؟ قلت: لأنّ في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيدًا وتشديدًا، كالذي تراه في الجمع بين المفسرو التفسير. والسدس: مبتدأ. وخبره: لأبويه. والبدل متوسط بينهما للبيان. ذكره الزمخشري، والنسفي، والرازي، وأبوالسعود، والبيضاوي، و أبوحيان، والآلوسي(٥٩).

وزعم ابن المنير «أن في إعرابه بدلًا نظرًا، وذلك أنه يكون على هذا التقدير من بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، ويكون أصل الكلام: والسدس لأبويه لكل واحد منهما، و مقتضى الاقتصار على المبدل منه التشريك بينهما في السدس كما قال سبحانه: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ فاقتضى اشتراكهن فيه، و مقتضى البدل لو قدر إهدار الأول إفراد كل واحد منهما بالسدس وعدم التشريك، وهذا يناقض حقيقة هذا النوع من البدل إذ يلزم فيه أن يكون مؤدَّى المبدل منه والبدل واحدًا، وإنما فائدته التأكيد بمجموع الاسمين لا غير بلا زيادة معنى، فإذا تحقق ما بينهما من التباين تعذرت البدلية المذكورة. وليس من بدل التقسيم أيضًا على هذا الإعراب، وإلا لزم زيادة معنى في البدل، فالوجه (والله أعلم) أن يقدر مبتدأ (محذوف كأنه قيل): و لأبويه الثلث ثم لما ذكر نصيبهما مجملًا فصله بقوله: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ وساغ حذف المبتدأ لدلالة التفصيل عليه ضرورة؛ إذ يلزم من استحقاق كل واحد منهما السدس استحقاقهما معًا للثلث»، ورده أبوحيان «بأن هذا بدل بعض من كل ولذلك أتى بالضمير، ولا يتوهم أنه بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة لجواز «أبواك يصنعان كذا»، وامتناع «أبواك كل واحد منهما يصنعان كذا»؛ بل تقول: يصنع كذا، إلا أنه اعترض على جعل (لأبويه) خبرالمبتدأ بأن البدل هو الذي يكون خبر المبتدأ في أمثال ذلك دون المبدل منه كما في المثال، وتعقبه الحلبي بأن في هذه المناقشة نظرًا لأنه إذا قيل لك: ما محل (لأبويه) من الإعراب؟ تضطر إلى أن تقول: إنه في محل رفع على أنه خبر مقدم، ولكنه نقل نسبة الخبرية إلى كل واحد منهما دون (لأبويه) و اختير هذا التركيب دون أن يقال: ولكل واحد من أبويه السدس لما في الأول من الإجمال، والتفصيل الذي هو أوقع في الذهن دون الثاني، و دون أن يقال: لأبويه السدسان للتنصيص على تساوي الأبوين في الأول وعدم التنصيص على ذلك في الثاني لاحتماله التفاضل، وكونه خلاف الظاهر؛ لا يضر لأنه يكفي نكتة

للعدول[٦٠].

الثالثة:

فإن قلت: ما فائدة وصف الوصية بـ(يوصى بها) مع أن الوصية إنما هي ما يوصى بها؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: ووصف الوصية بجملة ﴿يُوصِى بِهَآ﴾ لئلا يُتوهّم أنّ المراد الوصيّة التي كانت مفروضة قبل شرع الفرائض، وهي التي في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]. ذكره ابن عاشور[٦١].

الثاني: فائدة الوصف الترغيب في الوصية والندب إليها. ذكره أبوالسعود، والآلوسي[٦٢].

الثالث: فائدته التعميم؛ لأن الوصية لاتكون إلا موصى بها. ذكره الآلوسي[٦٣].

الرابعة:

فإن قلت: ذكر «الدين» هنا أربع مرات، فما فائدة هذا التكرار؟

أجاب عنه ابن عاشور، فقال: وإنَّما ذكر الدين بعدها تتميمًا لما يتعيّن تقديمه على الميراث مع علم السامعين أنّ الدين يتقدّم على الوصيّة أيضًا؛ لأنّه حقّ سابق في مال الميّت؛ لأنّ المدين لايملك من ماله إلاّ ما هو فاضل عن دين دائنه. فموقع عطف ﴿أَوْدَيْن﴾ موقع الاحتراس، ولأجل هذا الاهتمام كرّر الله هذا القيد أربع مرات في هذه الآيات[٦٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٥-١٦]

فإن قلت: إذا كانت الآية الآولى في الزناة وهذه الآية أيضًا- في الزناة، فماالسبب في هذا التكرير، وما الفائدة فيه؟

قلنا: فيه قولان:

القول الأول: الآيتان في الزناة، وأما السبب في هذا التكرير والفائدة فيه فقال الرازي: ذكروا فيه وجوها:

الأول: أن المراد من قوله: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ [النساء:١٥] المراد منه الزواني، و المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ الزناة، ثم إنه تعالى خص الحبس في البيت بالمرأة وخص الايذاء بالرجل، والسبب فيه أن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فانه لا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه وترتيب مهماته و اكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبة المرأة الزانية الحبس في البيت، وجعلت عقوبة الرجل الزاني أن يؤذى، فإذا تاب ترك إيذاؤه، ويحتمل أيضًا أن يقال: إن الايذاء

كان مشتركا بين الرجل والمرأة، والحبس كان من خواص المرأة، فاذا تابا أزيل الإيذاء عنهما وبقي الحبس على المرأة، وهذا أحسن الوجوه المذكورة. ذكره الرازي(٦٥).

الثاني: قال السدي: المراد بهذه الآية البكر من الرجل والنساء، وبالآية الأولى الثيب - يريد: ودخل معهن من أحصن من الرجال بالمعنى - وحينئذ يظهر التفاوت بين الآيتين. قالوا: ويدل على هذا التفسير وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ فأضافهن إلى الأزواج. والثاني: أنه سماهن نساء، وهذا الاسم أليق بالثيب. والثالث: أن الأذى أخف من الحبس في البيت والأخف للبكر دون الثيب. ذكره الرازي(٦٦).

وعزاه الطبري إلى عطاء والحسن ورجحه فقال: وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾، قول من قال: «عُني به البكران غيرالمحصنين إذا زنيا، و كان أحدهما رجلا والآخر امرأة»؛ لأنه لوكان مقصودًا بذلك قصد البيان عن حكم الزناة من الرجال، كما كان مقصودًا بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ قصد البيان عن حكم الزواني، لقيل: «والذين يأتونها منكم فآذوهم»، أوقيل: «والذي يأتيها منكم»، كما قيل في التي قبلها: «والتي يأتين الفاحشة»، فأخرج ذكرهن على الجميع، ولم يقل: «واللتان يأتيان الفاحشة». وكذلك تفعل العرب إذا أرادت البيان على الوعيد على فعل أو الوعد عليه، أخرجت أسماءَ أهله بذكر الجميع أو الواحد، وذلك أن الواحد يدل على جنسه ولا تخرجها بذكراثنين. فتقول: «الذين يفعلون كذا فلهم كذا»، «والذي يفعل كذا فله كذا»، ولا تقول: «اللذان يفعلان كذا فلهما كذا» إلا أن يكون فعلا لا يكون إلا من شخصين مختلفين، كالزنا لا يكون إلا من زانٍ وزانية. فإذا كان ذلك كذلك قيل: بذكرالاثنين، يراد بذلك الفاعل والمفعول به. فأما أن يذكر بذكرالاثنين، والمراد بذلك شخصان في فعل قد ينفرد كل واحد منهما به، أوفي فعل لا يكونان فيه مشتركين، فذلك ما لا يُعْرف في كلامها.

وإذا كان ذلك كذلك، فبيِّنٌ فسادُ قول من قال: «عني بقوله: «واللذان يأتيانها منكم الرجلان» وصحةُ قول من قال: عني به الرجل والمرأة. وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أنهما غيراللواتي تقدم بيان حكمهن في قوله: «واللاتي يأتين الفاحشة»، لأن هذين اثنان، وأولئك جماعة.

وإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الحبس كان للثيّبات عقوبة حتى يتوفَّين من قبل أن يجعل لهن سبيلا؛ لأنه أغلظ في العقوبة من الأذى الذي هو تعنيف وتوبيخ أوسب وتعيير، كما كان السبيل التي جعلت لهن من الرجم، أغلظ من السبيل التي جعلت للأبكار من جلد المئة و نفي السنة(٦٧).

وقال القرطبي: قال ابن عطية: «ومعنى هذا

القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه». وقد رجّحه الطبري، وأباه النحاس وقال: تغليب المؤنث على المذكربعيد؛ لأنه لا يخرج الشيء إلى المجاز ومعناه صحيح في الحقيقة. وقيل: كان الإمساك للمرأة الزانية دون الرجل، فخُصّت المرأة بالذِّكْر في الإمساك ثم جمعا في الإيذاء. قال قتادة: كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعًا؛ وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعي والاكتساب(٦٨).

وإليه ذهب أبوالسعود، والبغوي، والآلوسي إلا أن الآلوسي قال: وبذلك يندفع التكرار لكن يبقى حكم الزاني المحصن غيرظاهر(٦٩).

الثالث: قال الحسن: هذه الآية نزلت قبل الآية المتقدمة والتقدير: واللذان يأتيان الفاحشة من النساء والرجال فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما. ثم نزل قوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ [النساء:١٥] يعني إن لم يتوبا وأصرا على هذا الفعل القبيح فأمسكوهن في البيوت إلى أن يتبين لكم أحوالهن، وهذا القول عندي في غاية البعد؛ لأنه يوجب فساد الترتيب في هذه الآيات(٧٠).

الرابع: أن يكون المراد هو أنه تعالى بين في الآية الأولى أن الشهداء على الزنا لابد وأن يكونوا أربعة، فبين في هذه الآية أنهم لوكانوا شاهدين فآذوهما وخوفوهما بالرفع إلى الإمام والحد، فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام فاتركوهما(٧١).

الخامس: ويشمل قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ جميع النساء اللائي يأتين الفاحشة من محصنات وغيرهنّ. وأمّا قوله ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا﴾ فهو مقتض نوعين من الذكور فإنّه تثنية الذي وهو اسم موصول للمذكّر، وقد قوبل به اسمُ موصول النساء الذي في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ ولا شكّ أنّ المراد بـ(اللذان) صنفان من الرجال: وهما صنف المحصنين، وصنف غير المحصنين منهم، و بذلك فسّره ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في رواية مجاهد، وهو الوجه في تفسير الآية، وبه يتقوّم معنى بيِّن غير متداخل ولا مُكَرّر. ذكره ابن عاشور، واختاره النحاس، ورواه عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، وعزاه القرطبي إلى مجاهد، وغيره واستحسنه(٧٢).

القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني: أن المراد بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ السحاقات، وحدهن الحبس إلى الموت وبقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ [النساء:١٦] أهل اللواط، وحدهما الأذى بالقول والفعل، والمراد بالآية المذكورة في سورة النور: الزنا بين الرجل والمرأة، وحده في البكر الجلد، وفي المحصن الرجم، واحتج أبو مسلم عليه بوجوه: الأول: أن قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ مخصوص بالنسوان، وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ مخصوص بالرجال؛ لأن قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ تثنية الذكور.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله:

﴿وَٱلَّذَانِ﴾ الذكر والأنثى إلا أنه غلب لفظ المذكر؟

قلنا: لو كان كذلك لما أفرد ذكر النساء من قبل، فلما أفرد ذكرهن ثم ذكر بعد قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ سقط هذا الاحتمال. الثاني: هو أن على هذا التقدير لا يحتاج إلى التزام النسخ في شيء من الآيات؛ بل يكون حكم كل واحدة منها باقيا مقررًا، و على التقدير الذي ذكرتم يحتاج إلى التزام النسخ، فكان هذا القول أولى. والثالث: أنه على الوجه الذي ذكرتم يكون قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ في الزنا وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ﴾ يكون أيضا في الزنا، فيفضي إلى تكرار الشيء الواحد في الموضع الواحد مرتين وإنه قبيح، وعلى الوجه الذي قلناه لا يفضي إلى ذلك فكان أولى.

الرابع: أن القائلين بأن هذه الآية نزلت في الزنا فسروا قوله: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلَۢا﴾ بالرجم والجلد والتغريب، وهذا لا يصح؛ لأن هذه الأشياء تكون عليهن لا لهن. قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة:٢٨٦] وأما نحن فإنا نفسر ذلك بأن يسهل الله لها قضاء الشهوة بطريق النكاح.

ثم قال أبو مسلم: ومما يدل على صحة ما ذكرناه قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان»(٧٣).

واحتجوا على إبطال كلام أبي مسلم بوجوه:

الأول: أن هذا قول لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين فكان باطلا.

الثاني: أنه روي في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «قد جعل الله لهن سبيلا الثيب ترجم والبكر تجلد»(٧٤) وهذا يدل على أن هذه الآية نازلة في حق الزناة. الثالث: أن الصحابة اختلفوا في أحكام اللواط، ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية، فعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على هذا الحكم من أقوى الدلائل على أن هذه الآية ليست في اللواطة.

والجواب عن الأول: أن هذا إجماع ممنوع فلقد قال بهذا القول مجاهد، وهو من أكابر المفسرين، ولأنا بينا في أصول الفقه أن استنباط تأويل جديد في الآية لم يذكره المتقدمون جائز.

والجواب عن الثاني: أن هذا يقتضي نسخ القرآن بخبر الواحد وإنه غيرجائز.

والجواب عن الثالث: أن مطلوب الصحابة أنه هل يقام الحد على اللوطي؟ وليس في هذه الآية دلالة على ذلك بالنفي ولا بالإثبات، فلهذا لم يرجعوا إليها(٧٥).

واستظهر أبوحيان القول الثاني فقال: «والذي يقتضيه ظاهر اللفظ هو قول مجاهد وغيره: أن (اللاتي) مختص بالنساء، وهو عام أحصنت أو لم تحصن. وإن (واللذان) مختص بالذكور، وهو عام في المحصن و غير المحصن. فعقوبة النساء الحبس،

وعقوبة الرجال الأذى. وتكون هاتان الآيتان وآية النور قد استوفت أصناف الزناة، ويؤيد هذا الظاهر قوله: (من نسائكم) وقوله: (منكم) لايقال: إن السحاق واللواط لم يكونا معروفين في العرب ولا في الجاهلية؛ لأن ذلك كان موجودًا فيهم، لكنه كان قليلًا. ومن ذلك قول طرفة بن العبد:

ملك النهاروأنت الليل مومسة

ماء الرجال على فخذيك كالقرس

وقال الراجز:

يا عجبًا لساحقات الورس

الجاعلات المكس فوق المكس»(٧٦).

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧].

فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾؟

قلنا: فيه وجهان:

الوجه الأول: أن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأنه يجب على الله قبولها، وجوب الكرم والفضل والإحسان، لا وجوب الاستحقاق، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ إخبار بأنه سيفعل ذلك. ذكره الرازي، وأبوالسعود، والآلوسي(٧٧).

وقال الزمخشري: قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بوجوبها عليه كما يجب على العبد بعض الطاعات. وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ عِدَةٌ بأنه يفي بما وجب عليه، وإعلام بأن الغفران كائن لا محالة كما يعد العبد الوفاء بالواجب.

وتعقبه أبوحيان فقال: وهذا الذي قاله هو على طريق المعتزلة، والذي نعتقده أن الله لا يجب عليه تعالى شيء من جهة العقل، فأما ما ظاهره الوجوب من جهة السمع على نفسه كتخليد الكفار وقبول الإيمان من الكافر بشرطه فذلك واقع قطعًا، وأما قبول التوبة فلا يجب على الله عقلًا، وأما من جهة السمع فتظافرت ظواهر الآي والسنة على قبول الله التوبة، وأفادت القطع بذلك(٧٨).

الثاني:أن قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يعني إنما الهداية إلى التوبة والإرشاد إليها والإعانة عليها على الله تعالى في حق من أتى بالذنب على سبيل الجهالة ثم تاب عنها عن قريب وترك الإصرار عليها وأتى بالاستغفار عنها. ثم قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ يعني أن العبد الذي هذا شأنه إذا أتى بالتوبة قبلها الله منه، فالمراد بالأول التوفيق على التوبة، وبالثاني قبول التوبة. ذكره الرازي، وأبوحيان(٧٩).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٧].

فإن قلت: إنه تعالى لما بين أن من تاب عند حضور علامات الموت ومقدماته لا تقبل توبته، فمن البدهي أنها لا تقبل توبته بعد الموت، فما فائدة قوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ﴾؟

قلنا: فيه وجهان:

الأول: معناه: الذين قرب موتهم، والمعنى أنه كما أن التوبة عن المعاصي لا تقبل عند القرب من الموت، كذلك الإيمان لا يقبل عند القرب من الموت. ذكره الرازي(٨٠).

الثاني: المراد أن الكفار إذا ماتوا على الكفر فلو تابوا في الآخرة لا تقبل توبتهم. ذكره الرازي(٨١).

٨- قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣].

فإن قلت: ما فائدة تقييد (أبنائكم) بـ(الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) وهل يكون الأبناء إلا من الأصلاب؟

قلنا: قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنى، وكان المتبنى في صدر الإسلام بمنزلة الابن، ولا يحرم على الإنسان حليلة من ادعاه ابنًا إذا لم يكن من صلبه، نكح الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الأسدية وهي بنت أميمة بنت عبد المطلب، وكانت زينب ابنة عمة النبي ﷺ، بعد أن كانت زوجة زيد بن حارثة، فقال المشركون: إنه تزوج امرأة ابنه فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، وقال: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٧]. ذكره الزمخشري، و الرازي، وابن عاشور، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، والبيضاوي، والآلوسي، وأبو حيان، والبغوي(٨٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٢٤]

فإن قلت: ما فائدة تقييد قوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ بعد قوله: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ فإن الأول يدل على الثاني؟

قلنا: فائدته التأكيد؛ لأنّ الزنى يسمّى السفاح، مشتقّا من السفح، وهو أن يهراق الماء دون حَبْس، يقال: سَفَح الماءُ. وذلك أنّ الرجل والمرأة يبذل كلّ منهما للآخر ما رامه منه دون قيد ولا رضَى وليّ،

فكـأنّهم اشـتقّوه مـن معنـى البـذل بـلا تقيّـد بـأمرٍ معـروف؛ لأنّ المِعطـاء يطلـق عليـه السَّفَّاح. وكـان الرجـل إذا أراد مـن المـرأة الفاحـشة يقـول لهـا: سافحيني، فرجع معنى السفاح إلى التباذل وإطلاق العنان، وقيل: لأنّه بلا عقد، فكأنّه سَفَح سفحا، أي صبّا لا يحجبه شيء، وغير هذا في اشتقاقه لا يَصحّ، لأنّه لا يختصّ بالزنى. ذكره ابن عاشور، والرازي، وأبو السعود، والآلوسي(٨٣).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء:٢٥]

في الآية بدهيتان:

الأولى:

فإن قيل: الاستطاعة هي القدرة، والطول أيضًا هو القدرة، فيصير تقدير الآية: ومن لم يقدر منكم على القدرة على نكاح المحصنات، فما فائدة هذا التكرير في ذكر القدرة؟

قلنا: إن قوله: (طَولًا) مصدر مؤكد له؛ لأنه بمعناه، إذ الاستطاعة هي الطول. ذكره الرازي، وأبوالسعود، و الآلوسي(٨٤).

الثاني: وقوله سبحانه: (طَولًا) مفعول به لـ«يستطع» وجعله مفعولًا لأجله على حذف مضاف أي لعدم طول تطويلٌ بلا طول. والمراد به الغنى والسعة، وبذلك فسره ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد، وأصله الفضل والزيادة، ومنه الطائل.

وأما إعراب قوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإما: مفعولٌ صريح لـ«طَولًا»، فإن إعمالَ المصدرِ المنوَّنِ شائعٌ ذائعٌ كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ كأنه قيل: ومن لم يستطعْ منكم أن ينال نكاحَهن، وإما بتقديرحرفِ الجرِّ أي ومن لم يستطعْ منكم غِنىً إلى نكاحهن أو لنكاحهن، فالجارُّ في محل النصبِ صفةٌ لـ«طولًا» أي طَوْلًا مُوصِلًا إليه أو كائنًا له أو على نكاحهن.

وجوز أبوالبقاء أن يكون بدلًا من (طَولًا) بدل الشيء من الشيء، وهما لشيء واحد بناءً على أن الطول هو القدرة أوالفضل والنكاح قوة وفضل. ذكره أبو السعود، و البيضاوي، والرازي(٨٥).

الثالث: ما ذكره البيضاوي، والآلوسي من أن بعضهم فسره بالاعتلاء والنيل فهو من قولهم: طلته أي نلت منه. ومنه قول الفرزدق:

إن الفرزد صخرة ملمومة

طالت فليس تنالها الأوعالا

فليس من باب التكرير(٨٦).

الثانية:

فإن قلت: ما فائدة وصف «محصنات» بـ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ فإنه يدل عليه قوله: «محصنات»؟

قلنا فيه وجوه:

الأول: قال أكثر المفسرين: المسافحة هي التي تؤاجر نفسها مع أي رجل أرادها، و أما المتخذة الخدن فهي التي تتخذ خدنًا معينًا، وكان أهل الجاهلية يفصلون بين القسمين، وما كانوا يحكمون على ذات الخدن بكونها زانية، فلما كان هذا الفرق معتبرًا عندهم لا جرم أن الله سبحانه أفرد كل واحد من هذين القسمين بالذكر، ونص على حرمتهما معًا، ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان أهل الجاهلية يحرِّمون ما ظهر من الزنا، ويستحلون ما خفي، يقولون: «أما ما ظهر منه فهو لؤم، وأما ما خفي فلا بأس بذلك». ذكره الطبري، والثعالبي، والزمخشري، وأبوحيان، والسمرقندي، وأبوالسعود، و الآلوسي، والرازي(٨٧).

الوجه الثاني: قصد منها تفظيع ما كانت ترتكبه الإماء في الجاهلية بإذن مواليهنّ لاكتساب المال بالبغاء ونحوه، وكان الناس يومئذ قريبًا عصرهم بالجاهلية. والمسافحات الزواني مع غير معيّن. ومتّخذاتُ الأخدَان هنّ متّخذات أخلاّء تتّخذ الواحدة خليلًا تختصّ به لا تألف غيره. وهذا وإن كان يشبه النكاح من جهة عدم التعدّد، إلاّ أنّه يخالفه من جهة التستّر وجهل النسب وخلع برقع المروءة، ولذلك عطفه على قوله: (غيرمسافحات) سدّا لمداخل الزنا كلّها. ذكره ابن عاشور(٨٨).

١١- قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٦٢]

فإن قلت: قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ معنى الجملتين واحد، فما فائدة التكرار؟

وأجيب من وجوه:

الأول: التكرير لأجل التأكيد. ذكره الرازي - وضعفه - وأبوحيان(٨٩).

الثاني: ما ذكره الرازي - ورجحه - فقال: والحق أن المراد من قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ هو أنه تعالى بيّن لنا هذه التكاليف، وميّز فيها الحلال من الحرام والحَسَن من القبيح. وذكره الطبري، والبيضاوي(٩٠).

والمراد بقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِيْنَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيه أقوال:

أحدهما: أن هذا دليل على أن كل ما بين تحريمه لنا وتحليله لنا من النساء في الآيات المتقدمة، فقدكان الحكم أيضا كذلك في جميع الشرائع والمِلَل. وذكره

الطبري، والرازي، وأبوحيان(٩١).

والقول الثاني: أنه ليس المراد ذلك؛ بل المراد أنه تعالى يهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم في بيان مالكم فيه من المصلحة كما بينه لهم، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها، إلا أنها متفقة في باب المصالح. ذكره الرازي، والآلوسي(٩٢).

القول الثالث: وهو أن المعنى: أنه يهديكم سنن الذين من قبلكم من أهل الحق لتجتنبوا الباطل و تتبعوا الحق. وذكره الرازي، وأبوحيان(٩٣).

القول الرابع: المراد بالسنن ما عنى في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾. ذكره أبوحيان(٩٤).

القول الخامس: المراد بها ما ذكره في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾. ذكره أبوحيان(٩٥).

القول السادس: طرق من قبلكم إلى الجنة. ذكره أبوحيان(٩٦).

القول السابع: مناهج من كان قبلكم من الأنبياء والصالحين، والطرق التي سلكوها في دينهم لتقتدوا بهم، وهذا قريب مما قبله. ذكره أبوحيان، وأبوالسعود، والبيضاوي، والنسفي(٩٧).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧]

فإن قلت:ما فائدة التكرار في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؟

قلنا:ذكروا فيه وجوها:

الأول: كرّر قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ليرتّب عليه قوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ فليس بتأكيد لفظي، وهذا كما يعاد اللفظ في الجزاء والصفة ونحوها، كقول الأحوص في الحماسة.

فَإذا تَزُول تَزُولُ عن متخمّط

تُخشَى بَوَادِرُه على الأقْران

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣] والمقصد من التعرُّض لإرادة الذين يتّبعون الشهوات تنبيهُ المسلمين إلى دخائل أعدائهم، ليعلموا الفرق بين مراد الله من الخلق، ومراد أعوان الشياطين، وهم الذين يتّبعون الشهوات. ولذلك قُدّم المسند إليه على الخَبر الفِعْلي في قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ليدلّ على التخصيص الإضافي أي الله وحده هو الذي يريد أن يتوب عليكم، أي يحرّضكم على التوبة والإقلاع عن المعاصي. وأمّا الذين يتّبعون الشهوات فيريدون انصرافكم عن الحقّ، وميلكم عنه إلى المعاصي. وإطلاقُ الإرادة على رغبة أصحاب الشهوات في ميْل المسلمين عن الحقّ لمشاكلة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]. والمقصود: ويحبّ الذين يتّبعون الشهوات أن تميلوا. ولمّا كانت رغبتهم في ميل المسلمين عن الحقّ رغبة

لا تخلو عن سعيهم لحصول ذلك، أشبهت رغبتُهم إرادة المريد للفعل، ونظيره قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [النساء:٤٤]. ذكره ابن عاشور، والثعالبي، و الجلالين(٩٨).

وإليه ذهب ابن عطية فقال: وتكرار إرادة الله تعالى التوبة على عبادة تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقدمت إرادة الله توطئة، مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات(٩٩).

الثاني: كرره للتأكيد والمبالغة. ذكره البيضاوي، والآلوسي، و الشوكاني، والنسفي(١٠٠).

الثالث: ما ذكره أبوحيان، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ تعلق الإرادة أولًا بالتوبة على سبيل العلية على ما اخترناه من الأقوال؛ لأن قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، معطوف على العلة، فهو علة. و تعلقها هنا على سبيل المفعولية، فقد اختلف التعلقان فلا تكرار. وكما أراد سبب التوبة فقد أراد التوبة عليهم، إذ قد يصح إرادة السبب دون الفعل. وذكره الآلوسي(١٠١).

الرابع: يفسر ﴿يَتُوبُ﴾ أولًا: بقبول التوبة والإرشاد مثلًا، وثانيًا: بأن يفعلوا ما يستوجبون به القبول فلا يكون تكرارًا. ذكره الآلوسي، والشوكاني(١٠٢).

الخامس: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ مبتدأةٌ مَسوقةٌ لبيان كمالِ منفعةِ ما أراده الله تعالى وكمالِ مضرّةِ ما يريد الفَجَرةُ لا لبيان إرادتِه تعالى لتوبته عليهم حتى يكونَ من باب التكريرِ للتقرير، ولذلك غُيّر الأسلوبُ إلى الجملة الاسميةِ دلالةً على دوام الإرادةِ ولم يُفعلْ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ للإشارة إلى الحدوثِ وللإيماء إلى كمالِ المباينةِ بين مضموني الجملتين كما مر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية. ذكره أبوالسعود، و الشوكاني(١٠٣).

السادس: هذه الإرادة منه سبحانه في جميع أحكام الشرع. ذكره القرطبي، والشوكاني(١٠٤).

السابع: قيل: في نكاح الأمة فقط. ذكره الشوكاني(١٠٥).

* * *

الهوامش:

(١) الرازي ٤/٤٧٣.
(٢) الرازي ٤/٤٧٣.
(٣) الرازي ٩/٤٧٣؛ أبوالسعود ٢/١٥؛ الآلوسي٤/١٢٣؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الشوكاني في تفسير الآية.
(٤) الزمخشري في تفسير الآية.
(٥) أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن عطية ٢/٤٤؛ أبوالسعود ٢/١١٥؛ الآلوسي ٤/١٢٣؛ الشوكاني في تفسير الآية.
(٦) الآلوسي٤/١٢٣.
(٧) الزمخشري في تفسيرالآية.
(٨) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/١٢٠؛ الآلوسي٤/١٣٤؛ الشوكاني في تفسيرالآية.
(٩) الرازي ٤/٤٨٣.

(١٠) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/١٢٠؛ الآلوسي٤/١٣٤؛ الشوكاني في تفسيرالآية.
(١١) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/١٢٠.
(١٢) أبوالسعود ٢/١٢٠؛ الآلوسي٤/١٣٤.
(١٣) الآلوسي٤/١٣٤.
(١٤) الرازي٥/٥؛ أبوالسعود ٢/١٢٦؛ الآلوسي٤/١٤٩.
(١٥) أبوالسعود ٢/١٢٦؛ الآلوسي٤/١٤٩.
(١٦) الرازي ٥/٩.
(١٧) الزمخشري في تفسيرالآية؛ الرازي ٥/١٩؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ أبوالسعود٢/١٣٤؛ الشوكاني في تفسيرالآية.
(١٨) الرازي ٥/٢٠؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ ابن عاشور في تفسيرالآية.
(١٩) الرازي ٥/٢٠.
(٢٠) الرازي ٥/٢٠.
(٢١) الرازي ٥/٢٠.
(٢٢) ابن عاشور ٣/٣٠٥؛ أبوحيان ٣/٤٩٥؛ الآلوسي٤/١٦٦.
(٢٣) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/١٣٤؛ الآلوسي٤/١٦٦.
(٢٤) الآلوسي٤/١٦٦.
(٢٥) الآلوسي٤/١٦٦.
(٢٦) أبوحيان ٣/٤٩٥.
(٢٧) أبوحيان ٣/٤٩٥
وحديث: «إن الله يحب.....» أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عائشة رضي الله عنها ٣/١٦٧ برقم [١١٢٠] بلفظ: «إن الله ليحب الملحين في الدعاء».
(٢٨) الرازي ٥/٢٢؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ أبو السعود ٢/١٣٥؛ الآلوسي٤/١٧٦؛ ابن عاشور في تفسيرالآية.
(٢٩) الرازي٩/٤٦٨؛ الزمخشري في تفسيرالآية؛ ابن عاشور في تفسيرالآية؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ أبو السعود ٢/١٣٥؛ الآلوسي٤/١٦٧.
(٣٠) الطبري ٤/١٤٢؛ الرازي ٩/٤٦٨؛ الآلوسي٤/١٦٧.
(٣١) ابن عاشور٣/٣٠٧.
(٣٢) أبوحيان في تفسير الآية.
(٣٣) أبوحيان في تفسير الآية.
(٣٤) الرازي ٩/٤٦٨؛ الآلوسي٤/١٦٦.
(٣٥) الرازي ٩/٤٦٨.
(٣٦) الآلوسي٤/١٦٦.
(٣٧) الآلوسي٤/١٦٦.
(٣٨) الرازي في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/١٣٩؛ الآلوسي٣/١٨٥.
(٣٩) الرازي في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية
(٤٠) أبوالسعود ٢/١٣٩.
(٤١) الرازي في تفسيرالآية.
(٤٢) ابن عاشور٣/٣١٥.
(٤٣) أبوالسعود ٢/١٣٩.
(٤٤) الزمخشري ١/٣٧٢؛ الرازي ٥/٤٤.
(٤٥) الزمخشري١/٣٧٢.
(٤٦) أبوحيان في تفسير الآية.
(٤٧) أبوحيان في تفسير الآية.
(٤٨) أبن عاشور٣/٣١٨.
(٤٩) أبوالسعود ٢/١٤٤.
(٥٠) الرازي٩/٥٠٦؛ الآلوسي٤/٢١٤.
(٥١) وعجزه: عتيدٌ، ويغدو في القَميصِ المُقَدَّد.
من قول دريد بن الصمة في تأبين أخيه.
(٥٢) أبوحيان في تفسير الآية ؛ النسفي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسيرالآية؛ أبوالسعود ٢/٥٠؛ البيضاوي ٢/١٥٠؛ الآلوسي ٤/٢٢٤؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.
وحديث: «ما ملأ آدمي.....» رواه الترمذي في السنن باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ٧/٤٦ [٢٤٢٠]، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، رواه أحمد في المسند [١٦٨٥٩]؛ وابن حبان في الصحيح ٥/٣٣ [٥١٣٩].
(٥٣) أبوحيان في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية.
(٥٤) الآلوسي٣/٤٥٣.
(٥٥) أبوحيان في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية.
(٥٦) الآلوسي٣/٤٥٣.
(٥٧) البغوي في تفسير الآية.
(٥٨) ابن عاشور في تفسيرالآية؛ أبوحيان في تفسيرالآية.
(٥٩) الزمخشري في تفسيرالآية؛ النسفي في تفسيرالآية؛ الرازي في تفسيرالآية؛ أبو السعود في تفسير الآية؛ البيضاوي٢/١٥١؛ أبوحيان في تفسيرالآية؛ الآلوسي٤/٢٢٧.
(٦٠) الآلوسي٤/٢٢٧.

(٦١) ابن عاشور في تفسير الآية.
(٦٢) أبوالسعود٢/١٥٠؛ الآلوسي٤/٢٣٤.
(٦٣) الآلوسي٤/٢٣٤.
(٦٤) الآلوسي٤/٢٣٤.
(٦٥) الرازي في تفسيرالآية.
(٦٦) الرازي في تفسيرالآية.
(٦٧) الرازي في تفسير الآية؛ الطبري ٤/٢٠٠.
(٦٨) ابن عطية في تفسيرالآية؛ القرطبي١/١٢٨٠.
(٦٩) أبوالسعود في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية؛ الآلوسي ٤/٢٣٥.
(٧٠) الرازي في تفسير الآية.
(٧١) الرازي في تفسير الآية.
(٧٢) ابن عاشور في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/٨٦؛ ابن كثير في تفسير الآية.
(٧٣) قال الشوكاني في النيل(٧/٢٨٧): أخرج البيهقي من حديث أبي موسى أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان. وفي إسناده: محمد بن عبد الرحمن كذبه أبو حاتم وقال البيهقي: لا أعرفه والحديث منكر بهذا الإسناد، انتهى. ورواه أبوالفتح الأزدي في الضعفاء والطبراني في الكبير من وجه آخر عن أبي موسى وفيه بشر بن المفضل البجلي وهو مجهول وقد أخرجه أبوداود الطيالسي في مسنده عنه.
(٧٤) لم أجده بهذه اللفظة وإنما رواه مسلم في الحدود باب حد الزاني ١٣١٦/٣ [١٦٩٠] بلفظ: «خذوا عني، خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مئة والرجم» من حديث عبادة بن الصامت.
(٧٥) الرازي في تفسيرالآية.
(٧٦) أبوحيان في تفسير الآية.
(٧٧) الرازي في تفسير الآية؛ أبوالسعود في تفسير الآية؛ الآلوسي ٤/٢٤٠.
(٧٨) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسيرالآية.
(٧٩) الرازي في تفسيرالآية؛ أبوحيان في تفسيرالآية.
(٨٠) الرازي في تفسير الآية.
(٨١) الرازي في تفسير الآية.
(٨٢) الزمخشري في تفسير الآية؛ الرازي في تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ القرطبي ٥/١١٥؛ ابن كثير في تفسير الآية؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ البيضاوي في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي؛ النسفي في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية.
(٨٣) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الرازي في تفسير الآية؛ أبو السعود ١٦٣/٢؛ الآلوسي٥/٥.
(٨٤) الرازي في تفسير الآية؛ أبو السعود٢/١٦٨؛ الآلوسي٤/١٨.
(٨٥) البيضاوي في تفسير الآية؛ أبوالسعود٢/١٦٨؛ الآلوسي٤/١٨.
(٨٦) البيضاوي في تفسير الآية؛ الآلوسي٤/١٨.
(٨٧) الطبري ٥/١٦؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ السمرقندي في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٢/٦٨؛ الآلوسي٥/٦؛ الرازي في تفسير الآية.
(٨٨) ابن عاشور في تفسير الآية.
(٨٩) الرازي في تفسير الآية.
(٩٠) الطبري في تفسير الآية؛ الرازي في تفسير الآية؛ البيضاوي في تفسير الآية.
(٩١) الرازي في تفسير الآية؛ الطبري في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية.
(٩٢) الرازي في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/٦.
(٩٣) الرازي في تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية.
(٩٤) أبوحيان في تفسير الآية.
(٩٥) أبوحيان في تفسير الآية.
(٩٦) أبوحيان في تفسير الآية.
(٩٧) أبوحيان في تفسير الآية؛ أبوالسعود٢/١٦٨؛ البيضاوي ١٦٩/٢؛ النسفي في تفسير الآية.
(٩٨) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ الجلالين في تفسير الآية.
(٩٩) ابن عطية في تفسير الآية.
(١٠٠) البيضاوي في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٤؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية.
(١٠١) أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٤.
(١٠٢) الآلوسي٥/١٤؛ الشوكاني في تفسير الآية.
(١٠٣) أبوالسعود ٢/١٧٥؛ الشوكاني في تفسير الآية.
(١٠٤) القرطبي ٥/١٤٩؛ الشوكاني في تفسير الآية.
(١٠٥) الشوكاني في تفسير الآية.

* * *

ثلاث ليال في عاصمة تكنولوجيا المعلومات الهندية

بقلم: **التحرير**

في يوم من أيام شهر يناير عام ٢٠٢٥م اتصل بي الأخُ الفاضل المفتي عمر العليكرهي[١] - أحد أساتذة جامعة محمد أحمد بمدينة (بنجالورو) عاصمة تكنولوجيا المعلومات في الهند Information technology capital -، وبعد التحية والتسليم أبدى لي رغبة مدير جامعته المفتي شمس الدين حفظه الله أن أقوم بزيارة لها لاختبار طلابها وحضور ختمة صحيح البخاري فيها. وسبق أن تواعدت معه عام جائحة كورونا أن أزور الجامعة وأتشرف بلقاء القائمين عليها وأساتذتها، وكنا قد حجزنا التذكرة فيما أتذكر؛ ولكن حالت الأوضاع العالمية الناتجة عن الإغلاق التام العام دون القيام بهذه الرحلة، ونيل هذه السعادة.

وأما هذه المرة فإن الأخ العليكري قد أصر علي إصرارًا لا مزيد عليه بضرورة الرحلة إلى بنجالورو، وفعلا تحدد موعد السفر في ٩/شعبان ١٤٤٦هـ الموافق ٨/فبراير٢٠٢٥م أيام الاختبارات السنوية في رحاب الجامعة، برفقة كل من المفتي محمد مصعب العليكرهي[٢]- شقيق الأخ عمر العليكرهي- والمفتي وقار أحمد[٣] وهما من أعضاء هيئة الإفتاء بدارالعلوم/ديوبند، ومن العلماء والمفتين الشباب الذين يبلون بلاءً حسنًا، ويلعبون دورًا ملموسًا في مجال الفتاوى المستعصية التي يتلون فيها الخريت من خوف التوى. وحجزوا لنا نحن الثلاثة تذاكر على الخطوط الجوية الهندية من «دلهي» إلى (بنجالورو).

وتقرر أن يكون المفتي مصعب أمير الركب فرتب محطات الرحلة. وفي اليوم الموعود ركبنا سيارةً مريحةً تنم عن مذاق الأخ العليكرهي في الرحلات والسفريات، في الساعة الثانية ظهرًا، وخرجنا من «ديوبند» متجهين إلى «دهلي» بعد أن صلينا الظهر في بيوتنا استعجالا للانطلاق على الموعد المحدد. وسارت السيارة بسرعة مناسبة، ونحن نتجاذب أطراف الحديث في المجال العلمي حينًا، وفي الأوضاع التي يمر بها المسلمون في هذه البلاد وغيرها حتى بلغنا مشارف مدينة «دلهي»، وقد صادفنا موعد صلاة العصر، وكان السائق على علمٍ كافٍ بالطريق، فعرج بنا على مسجد يطل على

الطريـق الـسريع إلى «دهـلي» في ضـاحيتها، فنزلنـا مـن السيارة وصلينا العصر جماعةً فيه. و تعرف بعض أهله عـلى المفتي مـصعب لكثـرة نـشاطاته في مجـال الفتـوى والـدعوة والإرشـاد، وكنـا عـلى عجـل فلـم نلبـث بعـد الصلاة في المسجد إلا فواق الناقة. وأسرعنا السير في طرقـات العاصـمة المزدحمـة بالمـارين والـسيارات بمختلف أنواعها وألوانها حتى بلغنا مبنى المطارات رقم ٣ في نحو الساعة السادسة، ووقفنا في طابور أقل طولا أمام أحد مداخلها وتجاوزنا الباب فبحثنا عن مكتب الخطـوط الجويـة الهنديـة التـي حجزنـا عليهـا التـذاكر، وضـاق موعـد إقـلاع الطـائرة، فطلبنـا مـن إحـدى الموظفـات القائمـة عـلى رأس الطـابور أمـام المكاتب الخاصة بالخطوط أن تعجل لنا الإجراءات فتمنعت علينا وأمرتنا بالانتظار فيمن ينتظر، فقمنا قلـيلا في الطـابور، ثـم طلبنـا منهـا مـرة أخـرى. فرضـخت، وقـدمتنا إلى إحـدى الموظفـات في بعـض المكاتــب، ولم يكــن معنــا إلا الحقائــب اليدويــة، فأسرعت الإجراءات وسلمت إلينا ثلاث بطاقات لـدخول الطـائرة، فأسرعنـا إلى مكاتـب أمـن المطـار، وتجاوزناها في دقائق معدودة بعد أن خلعنا ما علينا مــن الملابــس الزائــدة حتــى أخرجنــا الجــوالات والـشاحنات، ووضـعناها في علـب بلاسـتيكية لتمـر بآلات الفحص والتفتيش. ومن الطرائف أن كاتب هـذه الـسطور حـين مـرَّ برجـل الأمـن بـدأ يفحـص ويـتكلم بلطـف ورفـق، وكـان فيما قـال: إن الفتيـات أصبحت ستون منهن يكثرن من التدخين في هـذه الأيـام، فقلـت لـه: أجـل، وأكثـر مـن هـذه النـسبة المئوية. فقال: كيف عرفتَ ذلك؟ قلت: ألا تمر في الأسـواق والمطـارات ومحطـات القطـارات، وتـرى الفتيـات عـددًا كبـيرًا مـنهن مكبـات عـلى التـدخين؟ فقال: أجل، ولكـن أود أن أقـول: إننـا حـين نفحـص عفـش وأغـراض المـسافرين المـارين بنـا نجـد العـدد الهائل من الفتيات في حقائبهن علب السجائر مما ينم عـن انتشار هـذه الظاهرة انتشارًا مروعًا في المجتمع النسوي.

تجاوزنـا بعـد اللتـي واللتيـا مكاتـب الفحـص والتفتـيش إلى غرفـة العبـادة في المطـار. وهـي غرفـة صـغيرة في بعـض المطـارات الهنديـة مخصـصة لأداء العبادات من الصلوات، مجهزة في كثير من الأحيان بالمواضـئ لا أدري أ تيـسيرًا عـلى المـصلين وتـوفيرًا للجـو الهـادئ الملائـم للعبـادة أم غـير ذلـك؟ دخلنـا الغرفة وكنا على وضوء، فأدينا المغرب، وتناولنا من التمور التي حملها معه المفتي مصعب، وشربنا المـاء البارد، وحمدنا الله تعالى على الأسودين. ونزعنا من الملابس ما ثقل علينا وما لانحتاج إليه حين ننزل على مطار بنجالورو؛ فإن الجو بها يكون حارًّا على

عكس ما في هذه المنطقة الباردة في هذه الأيام من الولاية الشمالية الهندية.

ثم توجهنا إلى البوابة رقم (B32) قبل موعد إقلاع الطائرة بيسير. وأخذنا مقاعدنا قبالته ريثما يعلن المذيع بدء الدخول إلى الطائرة. فلم نلبث أن سمعنا مناديا ينادي: ليتقدم أصحاب منطقة (C)، فتسابق المسافرون إلى الطابور أمام المكتب، وبدأ الموظفون يفحصون البطاقات فحصًا آليًّا ويسمحون للمسافرين بدخول الطائرة. فقمنا ودخلنا الطائرة في الساعة السابعة و الربع تقريبًا، وكانت مقاعد الطائرة ملآنة بالمسافرين. وفي الساعة الثامنة إلا الربع تحركت الطائرة للإقلاع، وسارت على المدرج سيرًا طويلًا، ثم أقلعت حتى استوت في جو السماء، وعلى لساننا جميعًا: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللّٰهم إنا نسأل في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللّٰهم هون علينا سفرنا، واطوِ عنا بعده، اللّٰهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل». ولم تتقدم الطائرة في مسارها إلا قليلا حتى شعرنا بهزات فيها، فاستولى الخوف على قلوب المسافرين، ورأى بعضهم الموت عيانًا. وأعلن المذيع بأن الطائرة تعرضت لمطبات جوية، فالرجاء العودة إلى المقاعد وربط حزام الأمن. و تستغرق رحلة الطائرة من «دلهي» العاصمة إلى (بنجالورو)- عاصمة تكنولوجيا المعلومات الهندية- في المعتاد ثلاث ساعات إلا عشرًا. ولم يمض إلا ساعتان ونصف ساعة حتى أعلن المذيع قرب نزول الطائرة على مطار المدينة، وأضيئت أنوار ربط الحزام، ولامست عجلاتها أرض المطار، وسارت عليها دقائق حتى توقفت في الساعة العاشرة والنصف ليلا، ونزلنا منها فيمن نزل. وكان المفتي عمر والأستاذ جواد[٤] مكلفين لاستقبالنا أمام صالة رقم ٢ من المطار، ولكن تبكير الطائرة لربع ساعة في النزول على مطار (بنجالورو) حال دون ذلك. فانتظرناهما على الدور الثاني من المطار. وحصل سوء تفاهم معهما، فرقينا إلى الدور الثالث من المطار، ولكن خاب ظننا، و حصحص سوء فهمنا للموضوع، فتقرر أن ننتظرهما دقائق حتى صادفونا على بوابة صالة رقم ٢ في الدور الثالث. ومطار (بنجالورو) أجمل المطارات وأروعها وأقربها إلى الطبيعة، ولشد ما يعجبك ثريات معلقات في سقفها، وفيها أشجار طبيعية غير صناعية.

ركبنا نحن الخمسة السيارة التي سارت بنا في طرقات المدينة الواسعة إلى مقر المدرسة على بعد نحو ٣٥ كيلو مترًا من المطار. وكانت خالية من المارين والسيارات بحكم مضي شطر كبير من الليل

حتى وصلنا في نحو الساعة الثانية والنصف إلى مقر الجامعة، التي استقبلنا فيها بعض أساتذتها البارين استقبالًا حارًّا فوق ما نستحقه، استقبالا لو اجتمعت أقلام الأدباء من كل لسان لما استطاعت وصفه. وتناولنا عشاءً خفيفًا لنأوي إلى الفراش في شقة مفروشة بجوار المدرسة، قد خصصها صاحبها لضيوف الجامعة، بها غرفتان وصالة ومطبخ والمرافق اللازمة. فنزلتُ في إحدى الغرفتين، ونزل صاحباي في الغرفة الأخرى، في جو هادئ وادع، لاتسمع فيه حسًّا ولا نأمة. فنمنا فيها نومًا عميقًا بعد رحلة طويلة استغرقت نحو عشر ساعات مذ خرجنا من «ديوبند» إلى أن وصلنا «بنجالورو». وصلينا الفجر في مسجد الجامعة المسمى بـ(مسجد مزمل) الرائع الجميل العالي البناء الشامخ الأركان.

ثم جلسنا مع مدير الجامعة ومؤسسها المفتي شمس الدين[٥] ونخبة من أساتذتها من أبرزهم شيخ الحديث بالجامعة المفتي سعود عالم القاسمي، والشيخ جواد القاسمي ناظر المدرسة، ويدها العاملة والدم الساري في شرايينها[٦]، والأستاذ محمد عفان المظفر نغري[٧]، والأستاذ شاهد إقبال القاسمي[٨].

جامعة محمد أحمد في سطور:

مؤسسة تعليمية تربوية دينية حديثة فتية يرجع تاريخ تأسيسها إلى عام ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، وضع حجر أساسها العالم المربي فضيلة الشيخ المفتي أبوالقاسم النعماني حفظه الله رئيس جامعة ديوبند الإسلامية بتوجيه من فضيلة المفتي شمس الدين القاسمي على نفقة الدكتور السيد محمد يوسف رحمه الله- رئيس مؤسسة الأوقاف في حكومة «كرناتكا» سابقًا.

ويعتبر الدكتور محمد يوسف من كبار المعروفين بإسهاماتهم الخيرية في النشاطات الإسلامية، وكانت نفسه تحدث منذ زمن غير يسير بأن يقيم مؤسسة تعليمية تربوية على مستوى راقٍ جدًّا، تزود الطلاب المسلمين بالعلوم الدينية بجانب المهارات المهنية. وفعلا تحققت أمنيته هذه في هذه الجامعة المسماة بجامعة محمد أحمد نسبةً إلى والد مؤسس الجامعة التي جاء تأسيسها لإخراج علماء متمكنين من العلوم الإسلامية، متحلين بالتقوى والإخلاص، همهم الأكبر الذود عن الدين الإسلامي، ونشره وإرشاد الأمة الإسلامية، يقدرون على مواجهة التحديات العصرية عن علم وبصيرة.

من أهم أهدافها:

١- تدريس العلوم العالية: القرآن والتفسير والحديث والفقه والفتاوى والعقائد والكلام.

٢- تدريس الفنون الآلية: ما تستلزم العلوم

العاليــة مــن الفنــون والعلــوم الآليــة مــن النحــو والصرف والبلاغة والمنطق وغيرها.

٣- تــدريس العلــوم المفيــدة مــن الحــساب والجغرافيــا والاقتــصاد ونحــو ذلــك، بالإضــافة إلى اللغات الأخرى حسب الحاجة.

٤- تربية الطلاب تربية فكرية دينية أخلاقية، وإيقاظ الروح الإسلامية في حياتهم، وخلق الشعور الديني في قلوبهم.

٥- إرشاد المسلمين في دينهم على أحسن وجه.

٦- نشر الدين الإسلامي والذود عنه.

٧- التعبــير الحــق عــن مــذهب أهــل الــسنة والجماعة.

أقسامها وشعبها:

١- إدارة الجامعة: شعبة أساسية في الجامعة، ترجــع إليهــا جميــع الــشؤون الإداريــة والتعليميــة، ويتقيد بلوائحها جميع الأساتذة والطاقم الإداري.

٢- شعبة الشؤون التعليمية:

تقوم على الشؤون التعليمية وإليها ترجع جميع مــا يتعلــق بــالتعليم والدراســة مــن قبــول طلبــات الالتحــاق، وحفــظ الــسجلات التعليميــة، وتقييــد الحضور وإصدار الشهادات، وتنظيم الاختبارات السنوية والنصف السنوية والدورية. ويتبعها قسم العالمية والفضيلة، يتلقى فيه الطالب الدراسة من الإعدادية إلى دورة الحديث الشريف. ويستخدم هذا القسم المنهج الدراسي المتبع في دارالعلوم/ ديوبند عــلاوة عــلى الوســائل التعليميــة القديمــة والوســائل التعليميــة الحديثــةَ المفيــدة مــن العارضــة، والــشاشة الموسعة.

٣- شعبة التخصص في الفقه والإفتاء:

الدراسة فيها سنة واحدة، يسعى فيها الطالب للتزود بالكفاءة والمهارة في المسائل الدينية، والإلمــام بــالعرف وأحكامــه، وتعــود الرجــوع إلى المــصادر الأصــلية، والدقــة و البراعــة في الفقــه والاســتنباط. وعلى الطالب أن يتمرن على مئة مسألة فقهية، ويعد مقــالًا وجيــزًا حــول أحــد الموضــوعات الهامــة والمستجدات العصرية. ويتبع فيها أساليب متنوعة من السبورة الرقمية والعرض والتقديم والسوفتوير في المجالات العلمية، والنقاش الفقهي، والخرائط، مع التركيز على التطبيق.

٤- شعبة التخصص في اللغة العربية:

تهدف هذه الشعبة إلى تأهيل الطلاب للتعبير العــربي الــسلس كتابــةً وخطابــةً ونطقًــا، و الترجمــة وكتابة المقالات العربية الفصيحة.

٥- لجنة أبي القاسم:

من اللجان الطلابية التي تمكن الطلاب من إلقــاء الخطــب في مختلــف الموضــوعات و شــتى

المناسـبات، حيـث يـشارك الطـلاب كلهـم يـوم الخمـيس في الحـصة الأخـيرة الدراسـية في حلقاتهـا البالغ عددها نحو ١٤ حلقة خطابة بإشراف بعض الأساتذة.

٦- النادي العربي:

يتـدرب فيـه الطـلاب عـلى الخطابـة العربيـة بإشراف أستاذ من أساتذة الجامعة.

٧- قسم المناظرة والمباحثة:

يهدف إلى تأهيل الطلاب للمناظرة مع الفرق الـضالة الباطلـة، حيـث يتلقـى الطالـب فيـه أسـاليب وأدوات المناظرة معها، والرد عليها ردًّا مقنعًا.

٨- المجلات والجرائد:

بهـدف خلـق القـدرات الكتابيـة في الطـلاب تـصدر المجـلات في اللغـات الـثلاث: الأرديـة و العربية والإنجليزية بإشراف من الأساتذة.

٩- المكتبة:

المكتبـة جـزء لايتجـزأ مـن المدرسـة والجامعـة. فأزارنا أساتذتها مكتبة الجامعة، وهي مكتبة واسعة بهـا نحـو خمـسة آلاف كتـاب قـديم وحـديث، مـن المقررات الدراسية وغيرها. ويستعير منها الطالب مـا يحتـاج إليـه مـن المـصادر في أول العـام بالمجـان ويردها إليها في نهايته.

١٠- دارالإفتاء:

مـن أهـم شـعب الجامعـة، ترشـد المـسلمين في أمـور دينـهم في ضـوء الكتـاب والـسنة النبويـة. ولهـا صفحة على الشبكة باسم (Darul ifta.in).

عدد الطلاب:

رغـم أن هـذه الجامعة لم يمض عليها إلا بضعة أعـوام، ولكـن تخـرج منهـا عـدد وجيـه مـن العلـماء والمفتين وغيرهم، فيما يلي جرد عابر:

عـدد الخـريجين مـن قـسم التخـصص في الفقـه والإفتاء:١٠٩.

عدد الخريجين من دورة الحديث الشريف:٥٧.

عدد الخريجين من قسم الأدب العربي:١٥.

عدد الخريجين من شعبة العالمية:١٠٥.

من إصدارات الجامعة:

١- مسائل اقتصادية وطبية هامة.

٢- جائحة كورونا من المنظور الشرعي.

٣- رسولنا (الثلاثة باللغة الأردية).

٤- رجل عبقري (باللغة العربية).

من أبرز زوار الجامعة:

١- فـضيلة الـشيخ المفتي أبـو القاسـم الـنعماني حفظه الله، رئيس الجامعة الإسلامية: دار العلوم/ ديوبند.

٢- فضيلة الشيخ المقرئ محمد عثمان رحمه الله رئيس جمعية علماء الهند، وأستاذ الحديث بدارالعلوم /ديوبند سابقًا.

٣- فضيلة الشيخ السيد أرشد المدني حفظه الله،

رئـيس جمعيـة علـماء الهنـد، ورئـيس هيئـة التـدريس بدارالعلوم/ديوبند.

٤- فضيلة الشيخ السيد محمود أسعد المدني حفظه الله، رئيس جمعية علماء الهند.

٥- فـضيلة الـشيخ إبـراهيم الإفريقـي حفظـه الله، مجاز البيعة من شيخ الحديث محمد زكريا رحمه الله والخادم الوفي للمفتي محمود حسن الكنكوهي رحمه الله.

٦- فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي حفظه الله، نائـب رئـيس الجامعـة الإسـلامية: دارالعلـوم /ديوبند.

٧- فضيلة المفتي محمد راشد حفظه الله، نائب رئيس الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند.

وبلغ عدد أبرز الزوار نحوًا من ٢٥ نفسًا.

قضينا بين هؤلاء القوم الكرام يومين وثلاث ليـال سـويًّا، في مدارسـة علميـة وحـوار بنـاء، و اختبـارات للطـلاب، ومـشاورات مـع المـسؤولين والأسـاتذة فـيما يخـص تطـوير التعلـيم والتربيـة، و تخريج كوادر صالحة تلبي حاجات الأمة المعاصرة. ولمـسنا خـلال الاختبـارات أن مـستوى التعلـيم والتربية في المعهد راقٍ جدًّا يجمع بين القديم الصالح والجديـد النـافع، واطلعنـا عـلى خـرائط تعليميـة وتربويـة إلكترونيـة مـن صـنع طلابهـا عـن حـذق وبراعة تستهوي القلوب، وتأسر العيون، و تستنطق الألـسنة بالثنـاء والتقـدير، منهـا خريطـة نحويـة إلكترونية، تقدم الأسئلة الخاصة بالنحو، فإذا كانت إجابة الطالب صحيحة ظهر النور الأخضر، وإلا فالنور الأحمر دلالة على صحة الجواب و خطئه، وكل ذلك من صنع الطلاب واختراعاتهم كأنك في مختبر إلكتروني رقمي لا في مدرسة دينية هدفها تزويد الطلاب بالعلوم الدينية فحسب.

وفي مـساء يـوم مـن أيـام نزولنـا في الجامعـة وبالتحديد بعد صلاة العصر عقدوا مجلس ختمة صحيح الإمام البخاري- الذي يدرس الجزء الأول منه الشيخ سعود عالم القاسمي، والجزء الثاني منه الشيخ المفتي شمس الدين القاسمي مدير الجامعة-؛ حيث قرأ الطلاب آخر حديث منه، وكلفوني أن أدرِّسهم هذا الحديث الشريف، حتى يكون نهاية للكتاب، وفعلًا قرأت الحديث وشرحته شرحًا موجزًا ما استطعت، و زودت الطلاب بالنصائح التي تنفعهم بعد تخرجهم، بالإضافة إلى التذكير بمسؤولياتهم وواجباتهم حين يدخلون مضمار العمل والتطبيق، وبما قد يواجهون من العراقيل والعقبات والمطبات في الحياة، وأكدت على ضرورة التحلي بالصبر الكافي والعمل الدؤوب، والمواظبة على الواجبات الدينية، ومحاولة نفع الناس ما

استطاعوا إليه سبيلا، ليكونوا رسل خير وصلاح، وأمن وسلام إلى مجتمعاتهم ومناطقهم التي هي في أشد حاجة إلى من يأخذ بأيديها إلى بر الأمان، ويشكل لهم طوق النجاة في هذا البحر اللجي من المتاهات والفتن المظلمة التي تمر بها الأمة الإسلامية مما لم يسبق له مثيل في تاريخها الطويل الممتد على أربعة عشر قرنًا أو يزيد. وأوصيت نفسي أولا وإياهم- فيما أوصيت- «بتقوى الله، وتحامي الوقوع في حُرَم الله؛ فإنَّ التقوى أساسُ الصلاح، وكنزُ النجاح، وعمدةُ الفوز والفلاح، التقوى ناصرٌ لا يَخذُل، وعزٌّ لا يُذِلُّ، وكنزٌ لا يقِلُّ، ومُعينٌ لا يمَلُّ، وعرشٌ لا يُثَلُّ، وعَقْدٌ لا يُحَلُّ، وقائد لا يَزِلُّ، وهادٍ لا يضِلُّ، وسيفٌ لا يُفَلُّ».

في ازدحام الأعمال خلال يومين وثلاث ليال رأينا كل ما يسر العين ويثلج الفؤاد و يشرح الصدر، ويبعث على الراحة والطمانينة. وحرص مدير الجامعة أن يزيرنا المدينة وشتى مناطقها ومؤسساتها التعليمية الشهيرة؛ ولكن حال دون ذلك الانشغال في الاختبارات و النشاطات التي كانت زيارتنا لهذه الجامعة من أجلها، ولكن لم يفُتْنا أن نلقي نظرة عابرة على المدينة من على سقف بعض البيوتات التي دعينا لتناول العشاء فيها، فرأيت المدينة في ظلام الليل الخليط بالأنوار الكهربائية، فإذا هي أرض غير مستوية، فيها أوهاد وتلال، ليلها كليل تهامة، لا حر ولا قر، ولا مخافة ولا سآمة، ورأيت فيها أبنية ناطحات السحاب، وفنادق كبارًا كأنها قرية برمتها، فقد شهدت المدينة تطورًا سريعًا ورقيًّا وازدهارًا، وتمشي المدن إلى العمران مشيًا أو تسعى سعيًا إن نشطت، وأما مدينة (بنجالورو) فقد طارت إليه طيرانًا، كأن يدًا عبقرية رفعت المدينة العتيقة ووضعت مكانها مدينةً حديثةً متطورةً بكل المعايير والمستويات، ولم يبق من المدينة العتيقة إلا اسمها.

وفي صباح اليوم الثالث جمعنا أغراضنا استعدادًا للرحيل، و ودعنا مدير الجامعة و أساتذتها وطلابها بعد أن استفدنا من هؤلاء القوم الكرام أكثر مما قد نفعناهم، وشكرناهم على ما قدموا لنا من الراحة والنعيم خلال نزولنا بالجامعة، وخرجنا من بوابة الجامعة نحمل معنا ذكريات طيبة محفورة في ألواح قلوبنا ما دمنا على قيد الحياة. وتوجه بنا الأستاذ جواد بسيارته الفارهة إلى المطار، وجدَّ بنا في السير مخافة أن يحول دون وصولنا إلى المطار زحمة أو نحو ذلك في مثل هذه المدينة التي تشهد اختناقًا مروريًّا في بعض الأحيان، فلا يكاد السائر يقطع من الطريق في بضع ساعات ما يقطعه في بضع دقائق. و وصلنا إلى البوابة رقم ٢ من المطار قبل وقت كافٍ من المغادرة، وقمنا بإجراءات المغادرة، وتجاوزنا

نقطة التفتيش، وأخذنا مقاعدنا في صالة المغادرة، ننتظر إعلان الدخول إلى الطائرة المتجهة إلى «دهلي» على الخطوط الجوية الهندية الشهيرة رقم الرحلة (AI2406).

وعند الصعود إلى الطائرة حدثت قصة طريفة لايخلو ذكرها من فائدة. و ذلك أننا حين اقتربنا إلى نقطة تفتيش بطاقة الصعود، وكان معنا حقيبة يدوية عادية يسمحون بالصعود بها إلى الطائرة في عموم الأحوال، وكان معنا أحد كبار مشايخ المنطقة والمشرف على جامعة محمد أحمد - وهو الشيخ المفتي محمد معصوم حفظه الله ورعاه[٩]- يسافر بنفس الرحلة، فتقدمنا معًا إلى نقطة تفتيش البطاقة، فمنعني بعض الموظفين من الصعود بالحقيبة إلى متن الطائرة، وحجزوها عندهم ليتولوا الصعود بها إلى متنها، وذلك بحجة أن وزنها فوق المسموح به، فتلكأت في الانصياع لهم، فتقدم الشيخ وتحدث معهم بلطف وقال: هؤلاء ضيوفنا في المدينة، جاؤوا لزيارتها، فلايليق بنا أن نزرع العراقيل في رحلتهم، ونكدر صفوها، فدَعُوهُم يصعدون إلى الطائرة بالحقيبة، واستعجلت في تجاوز النقطة وتخلصت منهم، نزلت بالمصعد الآلي، ثم نظرت ورائي: هل يخلفني أصحابي - وكانوا مع الشيخ المذكور- والشيخ أم لا؟ فلم أجد لهم أثرًا ولا عينًا، فتقدمت إلى الطائرة بخطى بطيئة عسى أن يلحقوني في الصعود إلى الطائرة. ثم انتظرتهم طويلا عند مدخل الطائرة دون جدوى، فلم أجد بدًّا من دخول الطائرة والجلوس على مقعدي رقم (C١٨). و نفسي تحدثني بما قد يحدث مع أصحابي من جراء حقيبتي. فلم يصعدوا إلى الطائرة إلا قبل إقلاعها بدقائق معدودة على أصابع اليد الواحدة. فما إن وقع بصري عليهم حتى صرخت فيهم: لم تأخرتم؟ هل حدث شيء؟ فقالوا: لن تُراعَ. وحدثت قصة عجيبة، وهي أننا بعد أن شفعنا لك بالسماح بالصعود بالحقيبة إلى الطائرة، وكانت مقاعدنا متفرقة في الطائرة، فحاولنا معهم أن يجمعوا مقاعدنا في مكان واحدٍ حتى نستأنس بعضنا ببعض في الجلوس والحديث في الطائرة، إذ فوجئنا بموظف بدأ يتحقق من أوزان حقائبنا، ولم يسمح لنا بالدخول بها إلى الطائرة بحجة أن الوزن فوق المسموح به. وكان الشيخ كثير الرحلات على الخطوط الجوية الهندية، ويعرف خبايا زواياها وزوايا خباياها، فشدد عليهم القول، و رعد وأبرق، فرضوا بأن يحجزوا حقيبة أحد الأصحاب، ويسمحوا لغيره، وهذا ما أخرهم في الصعود إلى الطائرة. ثم ما إن أخذ أصحابي مقاعدهم حتى أغلق باب الطائرة وتحركت، فقلنا: الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

اللّٰهم هون علينا سفرنا، واطوِ عنا بعده، اللّٰهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل.

وقطعت الطائرة المسافة إلى مطار «دلهي» في نحو ساعتين إلا عشر دقائق، وهبطت ومشت قليلا على المدرج ثم توقفت ونزلنا مع النازلين، وتوجهنا إلى منطقة استلام الأغراض، ثم خرجنا معًا منه، وكان المفتي مصعب تولى حجز سيارة كبيرة، فركبناها وما مشينا إلا قليلا حتى مررنا بمسجد قرب المطار، فنزلنا فيه وصلينا الظهر، ثم عدنا إلى السيارة التي أقلتنا بسرعة فائقة في شوارع مدينة «دلهي»، حتى تجاوزناها، ثم وقف بنا المفتي مصعب في بعض المطابع التي كان يرغب في طباعة بعض أعماله فيها، فقدم لنا صاحبها الماء البارد والشاي الحار، فتناولناهما وصلينا العصر في مكتبه. ثم عدنا إلى السيارة مرة أخرى، فسارت بنا رويدا، ثم جدت في السير حتى أتينا مطعم «تشتيل» (Cheetal) المعروف بخدماته في مجال المطاعم، على ضفاف شارع «دلهي»- «مظفر نغر»، فنزلنا فيه وصلينا المغرب ثم جمع لنا المفتي مصعب بين الحار والبارد من الشراب وبعض الوجبات الخفيفة. وبلغنا ديوبند في الساعة الثامنة ليلًا، وحمدنا الله تعالى على السلامة في الحل والترحال.

الهوامش:

(١) هو محمد عمر القاسمي بن الناشط الدعوي الدكتور عبدالمنان العليكرهي من العلماء الشباب من مواليد ١٦/يناير عام ١٩٩٤م، تلقى مبادئ دراسته في مدرسة معاذ بن جبل بمدينة «عليكره» المعروفة بجامعة المسلمين بها، وبها حفظ القرآن الكريم، وواصل دراسته في الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند، وتخرج منها في دورة الحديث الشريف عام٢٠١٥م، وأكمل دراسة الأدب العربي عام ٢٠١٦م ثم تخصص فيه بها عام٢٠١٧م، وكان موضوع بحثه في قسم التخصص العالي «المفتي الأكبر كفايت الله الدهلوي وأثره في الفقه الإسلامي»، كما درس الإفتاء بها عام٢٠١٨م، ثم بدأ مشواره التدريسي بجامعة محمد أحمد، منذ عام ٢٠١٨م، ويتولى اليوم تدريس كتاب سنن الترمذي وكتاب القدوري في الفقه الحنفي، وتمرين الطلاب على الفتاوى ودراسة كتاب الدر المختار مع رد المحتار -كتاب الحظر والإباحة-، والفتاوى الرشيدية. ومن أعماله «جائحة كورونا من المنظور الإسلامي»، و«التكييف الشرعي لعملة كربتو».

(٢) المفتي محمد مصعب العليكرهي القاسمي، شقيق المفتي محمد عمر بن عبد المنان، من العلماء العاملين البارزين في مجال الإفتاء في دار الإفتاء التابعة لدارالعلوم/ديوبند، من مواليد علي كره بولاية أترابراديش الهندية، تخرج في دورة الحديث بدار العلوم/ديوبند. ليلتحق بقسم الإفتاء بها، ثم يكمل تدريب الإفتاء بها. وتعين مفتيا مساعدا ثم مفتيا بالدار، عرفته منذ عقد أو أكثر، حرص على دراسة وتحقيق الكتب الفقهية والتراجم... شاب مرح نشيط، لايسأم خدمة أصحابه ومرافقيه في الحل والترحال.

(٣) المفتي محمد وقار علي بن محمد مبين الدين القاسمي، من المفتين الشباب، وعضو هيئة الإفتاء بدارالعلوم/ديوبند، رجل هين لين متواضع، كثير التأدب لشيوخه وأساتذته، معني بما يتعلق به من أعمال الإفتاء وغيرها، من مواليد عام ١٩٧٨م في «حيدر كنج» من أعمال «نالنده» بولاية «بيهار» الهندية، تلقى مبادئ العلم في قريته، ثم في المدرسة العربية /هشورا في «بانده» من ولاية أترابراديش، وتنقل في عدة مدارس ليلتحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٩٩٥م، وتخرج في

دورة الحديث بها عام ٢٠٠١م، والتحق بقسم التخصص في اللغة العربيـــة عـام ٢٠٠٢م ثـم بقـسم الإفتـاء بهـا عـام ٢٠٠٣م، وعين مفتيا مساعدا بها عام ٢٠٠٦م، وارتقى إلى منصب المفتي بالنيابة بها، له مشاركة في المؤتمرات الفقهية عبر الهند، من أهم أعماله: «النظام العائلي في الإسلام» وغيره ذلك.

(٤) هو محمد جواد بجلي القاسمي بن السيد كي إس معين الدين بجلي، مـن مواليـد عـام ١٩٩٣م، حفـظ القـرآن الكـريم في المدرسـة القدوسـية لتحفـيظ القـرآن في «بنجـالورو» عـام ٢٠٠٨م، ثـم أكمـل الدراسـة إلى مرحلـة العالميـة في مدرسـة دارالعلوم شاه ولي الله/ بنجالورو، ليلتحق بدورة الحديث الشريف في دارالعلوم/ديوبند ويتخرج منها عام ٢٠١٧م، كـما أكمـل دراسـة الإفتـاء في دارالعلـوم/حيـدرآباد عـام ٢٠١٨م، ويتولى التدريس والنظارة في مدرسة محمد أحمد منذ تخرجه في الإفتاء حتى يومنا هذا، وهو من العلماء الشباب، مكب على أعماله التدريسية والإدارية المنوطة به في المعهد، لايعرف الكلل والملل، كثير التجوال والتحرك والنشاط في الشؤون الخاصة بالمعهد، يقضي فيها ليله ونهاره، وقلما رأيت نـاظرًا يـصل ليلـه نهـاره لأعـمال مؤسـسته، لقينـاه عـلى مطـار «بنجالورو» فلـم نفارقه ولم يفارقنا حتى شيعنا وودعنا على مطارها يوم الرحيل، حرص خلال ذلك على توفير كل راحة وتيسير لضيوفه حتى لأمثالي.

(٥) المفتي شمس الدين بجلي القاسمي بن السيد قادر محي الدين بجلي، من مواليد عام ١٩٧١م، في «بنجالورو»، حفظ القرآن الكريم على المقرئ الشهير: كريم حسن التونكي، وتلقى مبادئ العلوم الشرعية إلى مرحلة العالمية على الشيخ محمد إقبال- شيخ الحديث سابقا في جامعة الباقيات الصالحات/ ويلور، وناظر قسم إصلاح المجتمع التابع لجمعية علماء الهند، - ثـم التحق بالصف الثالث بدارالعلوم/ديوبند ليتخرج في دورة الحديث عام ١٩٩٥م، و أكمل دراسة الإفتاء بها عام ١٩٩٦م، بايع العالم الرباني الجليل المفتي أبو القاسم النعماني حفظه الله، رئيس وشيخ الحديث بدارالعلوم/ديوبند. ثم نشط في الخدمات الدينية، فتولى نظارة الشؤون التعليمية، وقام بتدريس الحديث والفقه في دارالعلوم شاه ولي الله/ بنجالورو، منذ عام ١٩٩٨م ليومنا هذا، ثم توسع في خدماته ونشاطاته، وأنشأ جامعة محمد أحمد بنجالورو، وتولى إدارتها منذ عام ١٩٩٨م. ومن أبرز أعماله وخدماته علاوة على ذلك إقامة معهد القاسم الرقمي، الذي يعد منصة رقمية موسعة لشرح التوجيهات الدينية وخلق الوعي الديني بين المسلمين عامة والشباب خاصة من على المنصة الرقمية، وتوفر للمعهد كادر كفء يقوم بالرد على الأسئلة الموجهة إليه من المسلمين، ويقوم المعهد كذلك بتدريب العلماء والعاملين في الدعوة الإسلامية، وإنشاء الكتاتيب في الجهات التي تشتد إليها الحاجة فيها، وقد زرت أحد هذه الكتاتيب في مدينة «بنجالورو»، ورأيت أطفال المسلمين يتلقون القرآن الكريم ومبادئ الدين على طريقة مبتكرة رائعة نافعة ومنتظمة، حيث يدخل الأطفال الكتاب مع طلوع الشمس رجالا أو ركبانا، فيتناولون الفطور، ويبدأ دراستهم ويتناولون الغداء في موعده، ثم يتوفر لهم فسحة للراحة ثم يواصلون دراستهم إلى العصر ثم يرجعون إلى بيوتهم. ووجدت فيه عناية كبيرة فائقة بالقرآن الكريم تجويدا وترتيلا. ويبدأ الشيخ عمله مع بزوغ الشمس حيث يبدأ تدريس المجلد الثاني- حسب التجزئة الهندية- من صحيح البخاري، وكتاب السراجية في الميراث في جامعة محمد أحمد إلى الظهر، ثم ينتقل إلى مدرسة دارالعلوم شاه ولي الله لإلقاء بعض المحاضرات وأداء مسؤولية إصدارالفتاوى من دارالإفتاء بها.

(٦) الأستاذ سعود عالم القاسمي بن عبد الرؤوف من سكان مباركفور من مدينة «سهرسا» بولاية «بيهار» الهندية، من مواليد عام ١٩٧٤م، تلقى مبادئ دراسته في المدرسة الإسلامية المحمودية، ثم التحق بالمدرسة الأصغرية بديوبند، ثم بالمدرسة الرحمانية/ هافور، والتحق بالصف الثالث من القسم العربي بدارالعلوم/ديوبند، فاستمر بها حتى تخرج من دورة الحديث الشريف، وتأدب في قسم الأدب العربي والتخصص العالي في اللغة العربية عام ١٩٩٦م، ثم عمل مدرسًا مساعدًا في دارالعلوم/ديوبند، ثم عمل مدرسًا في عدد من المدارس الإسلامية الهندية أمثال: الجامعة القاسمية جامع الهدى/كهاري، من أعمال «بجنور»، والمدرسة الإسلامية بحر العلوم/كشن فور، من أعمال «مظفر نغر»، ثم في جامعة علوم القرآن/ جمبوسر، بولاية «غجرات»،حتى حط رحاله في جامعة محمد أحمد، ويدرس فيها اليوم كتب العلوم

والفنون المختلفة في المرحلة العليا منذ سبع سنوات، ويتولى مشيخة الحديث بها، ونظارة الشؤون التعليمية، وأكب على تدريس الحديث وغيره فلم يجد كثيرا من الفرص للاشتغال في التصنيف والتأليف غير أن له مقالا ضافيا بعنوان «سماحة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي: حياته وخدماته وأدواره»، وترجمة بعض الكتب إلى الأردية.

(٧) هو الأستاذ محمد عفان بن الحاج محمد شهزاد علي القاسمي المظفر نغري، من مواليد قرية «جسوئي» من أعمال «مظفرنغر» بولاية أترابراديش، عام١٩٩٤م، تلقى القرآن الكريم ومبادئ الدين في بعض مدارس «ديوبند»، وأخذ الفارسية ومقررات الصف العربي الأول عن خاله، ثم التحق بالمدرسة العربية شمس العلوم/تندهيرا، من أعمال (مظفر نغر)، وأخذ مقررات الصف العربي الرابع في المدرسة العربية بحر العلوم/كشن غنج، من أعمال (مظفرنغر)، والتحق عام ١٤٣٢ه بالصف العربي الخامس بدارالعلوم/ديوبند، وتخرج في دورة الحديث الشريف عام ١٤٣٦ه، وأكمل دراسة التفسير عام ١٤٣٧ه، ودراسةَ الأدب العربي عام ١٤٣٨ه، تخصص في اللغة العربية عام ١٤٣٩ه. ثم دخل في مجال التدريس فعُين مدرسًا في جامعة محمد أحمد/بنجالورو قبل ستة أعوام، ونيط به تدريس مقررات الصفوف الأولى إلى مرحلة دورة الحديث الشريف والتخصص في الإفتاء. ومن أبرز أعماله «الشيخ يوسف البنوري: حياته وأثره» في مئة صفحة، و «رجل عبقري في القرن الخامس عشر الهجري»- ترجمة الشيخ نور عالم خليل الأميني- باللغة العربية.

(٨) هو الأستاذ شاهد إقبال بن إقبال أحمد القاسمي، من مواليد مدينة «كانفور» الصناعية الشهيرة في ولاية أترابراديش، عام ١٩٩٤م، حفظ القرآن الكريم في المدرسة العربية مظهر العلوم/كانفور عام ٢٠٠٥م، وجوَّده فيها، وتخرج في دورة الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند عام٢٠١٥م، وتخصص في الأدب العربي عام٢٠١٧م، وفي الفقه والفتوى عام ٢٠١٨م في نفس الجامعة. ويتولى تدريس مقررات المرحلة الأولى إلى دورة الحديث الشريف والتخصص في الإفتاء في جامعة محمد أحمد/بنجالورو منذ سنوات. ومن أبرز أعماله: «أربعون حديثًا في النكاح والزواج»، و«المختارات العربية في ثوبه الجديد»، و«جائحة كورونا من المنظور الشرعي».

(٩) المفتي محمد معصوم بن محمد أكبر القاسمي، من مواليد عام ١٩٧٠م، أصله من مدينة «فيض آباد» بولاية أترا براديش الهندية، وبالتحديد من قرية «مسعود فور» نسبة إلى السيد مير مسعود الهمداني من الدعاة المسلمين في القرن السادس الهجري، و الذي عاصر شمس الدين ألتمش، والزاهد الشهير فريد كنج شكر، وكان أحد خلفائه، وإليه يرجع الفضل في نشر الدين و الدعوة إليه فيما بعد. وكان والده السيد محمد أكبر متقاعدًا من الجيش، وتوفي عام ٢٠٠٩م. وتلقى القاسمي مبادئ العلم على الشيخ ضمير أحمد- العالم المتواضع والخطيب المصقع الشهير في المنطقة- عام ١٤٠٠ه/١٩٨٠م، ثم التحق بالصف السابع العربي بدارالعلوم/ديوبند، وقرأ صحيح البخاري على الشيخ نصير أحمد، وتخرج من الدار عام ١٩٩١م. ثم بدأ عمله التدريسي والدعوي في مدرسة دار العلوم الإمدادية/رائ تشوتي، بولاية آندهرابراديش، التي أسست عام ١٩٢١م، ومن أبرز أبناء هذه المدينة بطل الحرية الشيخ صبغة الله البختياري. وأبلى الشيخ القاسمي بلاءً حسنًا في تدريس الطلاب وفي إنشاء عشرات الكتاتيب و المدارس الدينية- منها مدرسة العلوم الشرعية/بنجالورو- وفي بث الوعي الديني بين المسلمين الذين كان يغلب عليهم البدع والخرافات، وذكر لي بعض القصص العجيبة في دعوتهم إلى التخلي عنها، وإلى اتباع السنة النبوية ومذهب أهل السنة والجماعة، وقد تاب عدد كبير منهم عما كان عليه من الخرافات والشطحات. كما لم يدخر الشيخ القاسمي جهدًا في رد الفرق الضالة، وخاصة القاديانية التي تصدى لها بالمرصاد في المنطقة وغيرها، وعمل رسائل وكتبًا في ذلك، وله عضوية في المجلس الاستشاري بجامعة مظاهر علوم/سهارنفور، ويشغل منصب الأمين العام لجمعية علماء الهند/دلهي. ومن أبرز أعماله العلمية «دراسة وتكملة كتاب فتح المنان في إثبات مذهب النعمان للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي رحمه الله» في نحو ألفي صفحة سيشهد النور قريبًا بإذن الله تعالى، بالإضافة إلى رسائل وكتيبات عدة نافعة قيمة في الموضوع الذي تطرقت إليه، منها رسالة في التوجيه النفسي. بارك الله تعالى في عمره.

* * *

الوستانوي في ركب الخالدين

(١٣٦٩-١٤٤٦هـ/ ١٩٥٠-٢٠٢٥م)

بقلم: **رئيس التحرير**

استأثرت رحمة الله تعالى يوم الأحد ١٤٤٦/١١/٥هـ=٤/مايو ٢٠٢٥م ظهرًا بالعالم والناشط الاجتماعي الشهير الشيخ غلام محمد الوستانوي، وانتشر نبأ وفاته في الأوساط الهندية انشار النار في الهشيم، وسارت به الركبان في كل صوب وحدب. فإنا لله وإنا إليه راجعون، فلله ما أعطى وله ما أخذ، وكل شيء عنده بأجل مسمى. اللّهم اغفر له وارحمه واعف عنه، وأكرم نزله في جناتك جنات النعيم، وأمطر عليه شآبيب رحمتك، وأفِضْ على أهله وذويه ومحبيه الصبر والسلون. فليست وفاته وفاة رجل من الأمة، ولكنه بنيان قوم تهدم، كما قال عبدة بن الطبيب في قيس بن عاصم:

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ قَيْسَ بْنَ عاصِمٍ
وَرَحْمَتُــهُ مَــا شاءَ أَنْ يَتَــرَحَّما
تَحِيَّةَ مَنْ غادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى
إِذا زارَ عَنْ شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّما
فَما كانَ قَيْسٌ هَلْكُه هلْكُ واحِدٍ
وَلكِنَّــهُ بُنْيانُ قَــوْمٍ تَهَــدَّمَا

ولمثله قيل:

لَعَمرك ما الرزية فَقْد مَالٍ
ولا شاةٌ تمُوتُ ولا بَعِيرُ
وَلَكن الرزيَّة موتُ نَفس
يموت بموتها بشرٌ كثيرُ

وقيل:

ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبَكَيتهُ
عليهِ ولكن ساحةُ الصبرِ أوسع

بكى الناس على وفاة الوستانوي بكاء الثكلى، وانتحبوا، و ولولوا، وكاد ينفد صبرهم وسلوانهم:

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
حتى المنابر تبكي وهي عيدانُ

فما إن بلغ الناس نعي وفاته حتى توافدوا- علماء وطلابًا وعامة المسلمين- من أدنى البلاد و أقصاها إلى جامعة «أكل كوا» لإلقاء النظرة الأخيرة عليه وتورية جثمانه في مثواه الأخير بحضور آلاف المؤلفة في مساء يوم وفاته.

ومات الوستانوي ولم تمت محامده ولن تبيد:

مضى لسبيله معنٌ وَأبقى
محامد لن تبيد وَلنْ تنالا

كيف تموت يا مفجر ينبوع الأمل في صحراء حياة الأمة القاحلة؟ وكيف تموت يا حامي الضعفاء و المساكين؟ كيف تموت يا من لم يدخر جهدًا في إقامة المساجد صغيرها وكبيرها، وإنشاء الكتاتيب القرآنية والدينية في أدنى أرض الهند وأقصاها، وداخلها وخارجها؟ مت وغاب وجهك أيها الوستانوي، ولكن لم تزل مع من أحبوك في الله، يرونك ويشعرون بك، ويهتفون باسمك الغالي، ويسمعون كلماتك الشجية، وحديثك مثل طعم القطر في المَحْل، ويتذكرون نضالك في سبيل الرقي بمستوى الأمة في التعليم الديني والعصري، وبلائك الحسن في الخدمات الخيرية على مختلف المستويات.... نضال عظيم عظيم بكل ما يحمله هذه الكلمة من معنى، ولن يستطيع أحد في الأرض أن يفرق بينهم وبين ذكراك....مات الوستانوي البشر، و عاش الوستانوي الإنجازات العلمية والدينية والأعمال العبقرية والخدمات الاجتماعية والتعليمية.

معرفتي بالشيخ الوستانوي:

أكتب هذه السطور وتعود بي الذكريات إلى نحو ثلاثة عشر عامًا في الماضي، حيث صحبتُ نائبَ رئيس الجامعة فضيلة الشيخ عبد الخالق المدارسي حفظه الله في رحلة الحج ضمن ضيوف خادم الحرمين الشريفين، وهبطت طائرتنا على مطار جدة، وأكملنا الإجراءات اللازمة في «التنفيذي» الخاص بضيوف خادم الحرمين الشريفين، فما إن خرجنا لنركب الباصات المتجهة بنا إلى مكة المكرمة إذ وقع نظري على شبح بعيد لم أتبينه، يمشي مشية تشِي بالبساطة والهدوء والوقار، فقال لي فضيلة الشيخ المدراسي: هل تعرف الرجل؟ فقلت: لا. فقال: هو الشيخ الوستانوي حفظه الله، إذ التفت الشيخ لفتة إلينا، وعرفنا من بعيد، وتقدم إلينا، وتقدمنا إليه حتى التقيناه، فرحب بالشيخ المدارسي ترحيبًا حارًّا، فكان التعانق، وكان تبادل التحيات والتساؤل عن الأحوال الشخصية والجامعية طويلا، فتبين لنا أن الشيخ الوستانوي بدوره من ضيوف خادم الحرمين الشريفين في الحج، فكان مثار فرح وسرور للجميع حيث هيأت لنا هذه الرحلة مرافقته في الحل والترحال.

ركبنا معًا الحافلة التي اتجهت بنا إلى مكة المكرمة في مقاعد متلاصقة، يتبادل الشيخان أطراف الحديث ويشركاني أحيانًا فيه، وأنا كلي صمت واستماع وإعجاب بما قدر الله تعالى بينهما من المودة و المحبة والاحترام المتبادل والعلاقة العميقة قلما تجد مثلها بين الأقران، وأغذت الحافلة السير وجدت فيه، حتى توقفت أمام مبنى شامخ قالوا:

هذا منزل ضيوف خادم الحرمين الشريفين على نحو ميل أو ميلين من الحرم المكي الشريف، فنزلنا جميعًا من الحافلة وتوجهنا إلى صالة الانتظار لتحديد الغرف لكل واحد من الضيوف. وأعلنوا أن يختار كل أربعة من الضيوف غرفة واحدة من الفندق، فتقدمنا نحن الثلاثة ورابعنا الشيخ فضل رحيم – مدير جامعة الهداية بـ(جاي فور)– وتناولنا المفتاح وهرعنا إلى الغرفة المخصصة في الدور الثالث، فإذا فيها أربعة سرر، اختار كل واحد منا الجانب الذي راقه. فكان في نهاية الغرفة الشيخ فضل رحيم وقبله الشيخ الوستانوي وقبله الشيخ المدراسي، وعلى مدخل الغرفة اتخذ كاتب هذه السطور سريره.

قضينا في هذه الغرفة معًا نحو ثلاثة أيام قبل أن نتوجه إلى منى وعرفات. وكنا ننزل للصلوات في المصلى بالفندق. ومن عادة الشيخ الوستانوي أن يستصحب خادمًا له يعينه على حاجاته، ويقدم حبات الدواء في حينه، وبما أن منظمي برنامج ضيوف خادم الحرمين الشريف لم يسمحوا بأن يستصحب الضيف أحدًا في الرحلة، سافر الشيخ الوستانوي وحده من الهند، وطلبنا منهم أن يسمحوا لواحد من خدمه بالمبيت في الفندق معه؛ ولكنهم أبوا، فسعد كاتب هذه السطور بخدمة الشيخ الوستانوي طوال نحو ثمانية أو عشرة أيام.

وكان أحباؤه المتفرقون في أنحاء المملكة العربية السعودية يتوافدون إليه في النهار واحدًا بعد واحد ما سمح لهم نظام الفندق. فكانت فرصة غالية للقاء كثير من أهل العلم والرأي في مختلف المجالات الدينية والاجتماعية ممن كانوا يقدمون لزيارة الشيخ والسلام عليه خلال هذه المدة.

وقديمًا قالوا: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وخلال هذه الرحلة من جدة إلى مكة ثم منها إلى المدينة المنورة ومنها إلى جدة الممتدة على نحو تسعة أيام وجدت الشيخ الوستانوي من خير الناس خلقًا وشيمةً، ولقد خدمته خلال هذه المدة فلم يقل لي لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا قال لشيء لم أفعله: ليتك فعلته؟..أب حنون...مربٍ لطيف....رجل عبقري قام وحده بما يتطلب القيام به تكاتفَ أمة برمتها.

اسمه ونسبه:

هو غلام محمد بن الحاج محمد إسماعيل بن محمد إبراهيم الوستانوي، واشتهرت عائلته باسم «راندیرا»، والوستانوي نسبة إلى «وستانه» قرية من القرى في منطقة «سورت» انحدر إليها آباؤه عام ١٩٥٢م أو ١٩٥٣م. وقرية «وستانه» كانت قرية خاملة صغيرة متوارية وراء السهول والوديان لم يدرِ بها الناس ولم يحفل بها الأوساط العلمية، فخرج منها الوستانوي فأصبحت معرفة بعد أن كانت

نكرة، وأصبحت تعرف به لا أنه عرِفَ بها كجاري العادة.

مولده:

ولد الوستانوي في ١/يونيو عام ١٩٥٠م = ١٣/شعبان ١٣٦٩هـ في بيت صلاح وعلم ظل على صلة وطيدة بالعالم الرباني الزاهد شيخ الإسلام حسين أحمد المدني رحمه الله رحمةً واسعةً، ونشأ في رعاية أبيه الذي كان يرجو هو وأهله أن يوفق الله ابنهم لحمل أعباء الإرث النبوي في العلم والتعليم والصلاح و التربية والخدمة الدينية والإصلاحية، وفعلا صدق الوستانوي بخدماته ونشاطاته وأعماله العملاقة ظنون كثير من أهله وممن تربى عليهم من مشايخه.

وقرأ القرآن الكريم في مدرسة «قوة الإسلام» في بلده «كوساري»، ثم أخذ مبادئ المقررات الدراسية في خؤولته وفي مدرسة شمس العلوم/ بروده، والتحق بمدرسة «فلاح دارين» الشهيرة في ولاية «غجرات» عام ١٩٦٤م، وأمضى فيه ثماني سنوات ليتخرج منها في أوائل عام ١٩٧٢م، ومن أبرز مشايخه فيها كل من مولانا عبد الله الكافودروي، ومولانا شير علي الأفغاني، ومولانا ذو الفقار علي. ثم واصل دراسته، والتحق بجامعة مظاهر علوم/ سهارنفور عام ١٩٧٢م، وقرأ بها على الشيخ محمد يونس الجونفوري صحيح البخاري، ومقررات دورة الحديث على مشايخ آخرين بها. ثم تولى التدريس في قصبة «بودهان» من أعمال «سورت» عشرة أيام، وتحول منها إلى دارالعلوم/كنتهاريه عام ١٩٧٣م، وقام بتدريس مقررات المرحلة الابتدائية الفارسية إلى المتوسطة، وإبان نزوله في «كنتهاريه» وضع حجر أساس جامعة إشاعة العلوم/أكل كوا، التي كانت فاتحتها من حي «مكراني فلي»، وكان يقيم هو في «كنتهاريه»، وأما إدارة مدرسة أكل كوا فكان يتولاها مولانا يعقوب الخانفوري، وأخوه الحافظ محمد إسحاق. وأدرك الشيخ الوستانوي أن بقاءه في «كنتهاريه» مما يحول دون إدارة المدرسة وضبط نظامها على أحسن ما يرام، فاستقال من «كنتهاريه» وأقام في «أكل كوا» بصفة مستمرة، وظل على رئاسة الجامعة إلى يومنا هذا.

تعيينه رئيسًا لجامعة دارالعلوم/ديوبند:

في أعقاب وفاة رئيس الجامعة سابقًا فضيلة الشيخ مرغوب الرحمن البجنوري -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- دَرَسَ المجلس الاستشاري بالجامعة في دورتها المنعقدة في يومي ٥-٦/١/١٤٣٢هـ =١٠-١١/١/٢٠١١م تعيين خلف له، فوقع اختياره على عضو المجلس الاستشاري فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي

رحمه الله، فجاء تعيينه رئيسًا للجامعة، واستمر على هذا المنصب عدة أشهر، وهو ينوي- ويفصح عن نيته هذه- رفع مستوى الجامعة بصورة مثالية. ثم شهدت الجامعة أوضاعًا دفعته إلى استقالة من منصب الرئاسة، ليخلفه فيه فضيلة الشيخ المفتي أبوالقاسم النعماني. وسئل الشيخ ذات يوم عن ذلك، فقال: «علاقتنا بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند علاقة روحانية وقلبية و علمية، وهي مستمرة للأبد بإذن الله تعالى، وأما الاستقالة من الرئاسة فهو قرار ارتأيته أنا....».

أعماله وخدماته الدينية والتعليمية والاجتماعية:

١- جامعة إشاعة العلوم/ أكل كوا:

وضع الشيخ الوستانوي حجر أساس هذه الجامعة في هذه المنطقة في وقت كانت تشكو فيه شح الكتاتيب الدينية، حتى كان مسجدها غير عامرٍ، وكانت الأوضاع الاقتصادية للمسلمين يرثى لها. وبدأت هذه الجامعة كُتابًا من الكتاتيب الدينية عام ١٩٨٠م بمدرس واحد وستة طلاب، وأنشؤوا دورًا لإقامة الطلاب عام ١٩٨١م. ثم ارتفع عدد الطلاب مع مرور الأيام، وتوفرت بعض الوسائل المادية من بعض الجهات الدينية لتوسعة نطاقها وتحفيز نشاطاتها التعليمية والتربوية حتى أصبحت دوحةً باسقةً يستظل بظلها العلمي الديني والعصري نحو ستة عشر ألفًا من الطلاب علاوة على الكتاتيب والمدارس الدينية والعصرية و الكليات في مناطق أخرى تابعة لهذه الجامعة، يشتغل فيها أكثر من سبعة آلاف مدرس وأستاذ، ويتلقى فيها العلم نحو مئتي ألف طالب، وكذلك المستشفيات والمراكز المهنية (Vocational centers) و مؤسسات خيرية أخرى.

الدوافع إلى إنشاء هذه الجامعة:

سئل الشيخ الوستانوي عن الدوافع إلى إنشاء هذه الجامعة، فقال: ذات يوم خرجت في رحلة دعوية إلى منطقة «مكراني فلي» ونزلت ضيفًا عليها، فرأيت المسجد غير عامرٍ، ولاتكاد تجد كتاتيب دينية في القرية وما حولها، ويعيش المسلمون في وضع ديني واقتصادي يرثى له، وصليت الجمعة في جامع أكل كوا، وهو جامع صغير كمفحص قطاة. وألقيت كلمة قبل صلاة الجمعة. وهنا ألقى الله تعالى في قلبي أن ألازم هذه القرية، وأقوم بالخدمة الدينية فيها. وعُدت من الرحلة إلى «غجرات»، وكتبت إلى مشايخي أستشيرهم في ذلك، فما كان منهم أحد إلا أشار علي بأن أتخذ من هذه القرية منطلقًا لنشاطاتي الدينية والدعوية، فأكثرت من زيارتها، ولقاء أهلها ودعوتهم إلى العقيدة الصحيحة ونبذ البدع والخرافات السائدة في المجتمع القروي

من جراء جوار غير المسلمين فيها. وذات يوم تبرع السيد يعقوب الجد ثلاثة فدادين من الأرض لإقامة كتاب ديني فيها، وهو أمر لايستهان به في مثل هذه القرية الفقيرة الخاملة، وفي الجمعة التالية تبرع الحاج سليمان بمثلها من الأرض، فتوفرت لي ستة فدادين من الأرض. وأنشئت مؤسسة، وأول شيء بدأتُ به بعد التشاور مع ناظر المؤسسة أن قمت بتعزيز نظام الكتاتيب الدينية، و رفع رواتب فقهائها. ثم قدم جدي لأم من جنوب إفريقية، وكان يعيش فيها، ومنحني عشرين ألف روبية، فأقمت بها بناءً طارئًا. فكان بدء الكتاب في عام ١٩٨٠م، وإقامة دور للسكن الطلابي عام ١٩٨١م.

من أهم وأبرز جوانب نشاطات الجامعة ما يلي:

١- إقامة المسابقات القرآنية والعلمية التي عملت كثيرًا على توفير الجو الرائع لتلاوة القرآن الكريم وإقرائه بالتجويد والترتيل.

٢- وقاية الشباب المسلم عن طريق إنشاء الكليات العصرية التي تزودهم بالعلم والمعرفة في جو إسلامي.

٣- إنشاء الكتاتيب القرآنية والمدارس الدينية في (٢٠) ولاية من الولايات الهندية.

٤- وضع منهج تعليمي ينسجم مع طبيعة النساء وإنشاء مدارس البنات التي يتلقى فيها عشرات الآلاف من بنات المسلمين الدراسة الدينية.

٥- توفير الدراسة العصرية اللازمة نظرا لميل الأمة إلى الدراسة العصرية، وتناقص عدد الطلاب في المعاهد الدينية، مما يضمن لهم الجمع بين الدراسة الدينية والعصرية.

٦- إقامة الكليات الطبية وعدد كبير من المستشفيات نظرًا لتفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة.

٧- تدشين عدد من المشاريع والخطط التي تخفف من وطأة البطالة في المسلمين، وتوفير العمل لهم.

وضعت الجامعة مشاريع قصيرة المدى وطويلة المدى، فمن الأولى:

١- تحسين الوضع التعليمي والرقي البشري.

٢- وضع مناهج تعين على التدريب على المهارات المختلفة.

٣- تحسين الوضع التعليمي في المعاهد الإسلامية.

٤- تعليم اللغة الإنجليزية، والحاسوب، ونحو ذلك.

ومن الثانية:

١- إنشاء المدارس الدينية والمعاهد العصرية.

٢- إنشاء الكليات العصرية.

٣- إنشاء الجامعات العصرية الخاصة.

٤- إنشاء المعاهد والكليات والجامعات الخاصة بالبنات.

٥- عقد البرامج التعليمية والتربوية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

٦- وضع المقررات الدراسية حسب التوجيهات الروحانية والإسلامية.

٧- تدريب المعلمين وتربيتهم.

٨- رفع مستوى الجامعة إلى مصاف الجامعات العالمية، والمساعدة على تربية الشباب على المثل الإنسانية والعلوم الجديدة.

٩- نشر ثقافة الأمن ومثل التسامح والوسطية.

١٠- توسعة معاهدنا التعليمية عن طريق الاستفادة من التكنولوجيا الجديدة، ونشر العلم والثقافة في المناطق الشاسعة الريفية.

١١- تحريض البنات وكبار السن على الدراسة.

١٢- ربط الدراسة والتعليم بالوظيفة والعمل.

٢- الكليات العصرية جنبًا إلى جنب المعاهد الدينية:

ويمتاز الوستانوي بين العلماء المعاصرين بالجمع في نشاطاته بين إنشاء مراكز العلوم الدينية و العلوم العصرية، فهذه كتاتيب ومدارس وكليات دينية تابعة لجامعة أكل كوا، وتلك مدارس وكليات عصرية من كلية الهندسة والطب والصيدلة، وكذلك مراكز تعليم الحرف والمهن التي يكسب الطالب بالتزود بها عيشه من غير أن يكون عالة على غيره.

وسئل الشيخ ذات يوم: ما الذي كسبته بإقامة الكليات العصرية والمراكز المهنية جنبًا إلى جنب الكتاتيب والمدارس الدينية ليومنا هذا؟ فأجاب الشيخ: ما أكثر فوائدها وعائداتها؟! فهذا الجيل المسلم الجديد يتعلم الطب، ويتعلم الهندسة ويتعلم العلوم العصرية، وأعظم ذلك كله أنه يتلقى هذه العلوم في جو ديني. وإن لم يصل نجاحنا في ذلك إلى مئة في المئة؛ فإن طلاب الكليات العصرية والمراكز المهنية يفدون إلينا من جهات وأجواء مختلفة، ولايسعنا أن نمارس عليهم الضغوط أو التشديد، وإنما همنا أن ننصح لهم ونعظهم ونذكرهم. وقلت ذات يوم: إن الناس يقولون: ما الذي جاء به الوستانوي؟ إنه حول المدرسة الدينية إلى كلية عصرية، وقالوا: إن الوستانوي يعلم الدين من يتعلم الإنجليزية؟ومرد ذلك كله إلى سوء إدراك وقلة وعي. فالكتاتيب والمدارس الدينية لها نظام يخصها، والكليات العصرية لها نظام بمفردها، دون أن يضر بعضها بعضًا.

ومما حَدَا بالشيخ الوستانوي إلى إنشاء الكليات العصرية والمهنية أن شيخه ومربيه العارف بالله الزاهد[1] العابد الشيخ المقرئ صديق أحمد (١٣٤١-١٤١٨هـ/ ١٩٢٢-١٩٩٧م) قال له ذات يوم: «بني، إن تزويد المسلمين بالدراسة العصرية في جو إسلامي من أهم متطلبات العصر الراهن، فهلا خضت في هذا الغمار». فقال الوستانوي: سيدي، لو أقدمت عليه لتهافتت علي الفتاوى المعارضة لهذا العمل. فقال الشيخ الباندوي: «بني، شكا إلي بعض الناس خلال الرحلات أن بنته فرت من البيت مع غير المسلم، وتزوجته. والسبب وراء ذلك هي الدراسة في الكليات التي يديرها غير المسلمين. ولاسبيل إلى سد الطريق إلى ذلك إلا توفير الدراسة العصرية في الجو الإسلامي العفيف». وفعلا جسد الوستانوي هذه الرسالة على أرض الواقع بإنشاء كلية (ITI)، فلم يفاجأ إلا بكتيب يطعن فيه وفي عمله هذا، فعرضه على شيخه الباندوي، فقال الأخير: «بني، هذه آية قبولك عند الله تعالى». فأخذ الوستانوي برأي شيخه، وغذ السير في هذا الطريق، فأنشأ في مختلف أنحاء البلاد أكثر من (٨٠) مدرسة عصرية، ونحو (٥٠) كلية عصرية تعمل على تزويد أبناء المسلمين بالعلوم العصرية المختلفة، وتوفر مراكز مهنية، وهو ينوي إنشاء الجامعات العصرية في مختلف أصقاع البلاد.

٣- مسابقات حفظ القرآن الكريم على مستوى الدولة:

يقيم الشيخ منذ سنوات طويلة مسابقات حفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله على مستوى الدولة، مما زاد من حسن سمعة الجامعة ومؤسسها الوستانوي. وذات مرة سئل: من أين جاءت فكرة

(١) هو صديق أحمد بن سيد أحمد البَانْدَوِيّ، العالم الزاهد المعروف، وُلِدَ ببلدة (هَتَوْرَا) بمديرية (بَانَدَه) في شوَّال، وحَفِظَ القرآن الكريم على جده من الأُم الشَّيخ المقرئ عبد الرحمن المُحَدِّث البَاني بَتِي، وخاله الشَّيخ أمين الدين بعد وفاته، وتَلَقَّى عليه الكتب الفارسية الابتدائية، ثم قدِم مدرسة جامع العُلوم بـ(كَان فُور)، وقرأ كتُب الفارسية والعربية الابتدائية، ثم تَعلَّم في كلٍّ من: مدرسة «تكميل العُلوم» في أجمير، و«المدرسة الفتح بورية» في دِهْلِي، و«مدرسة شاهي» في مُرَادآبَاد لعدة سنوات، والْتَحَق بمَظاهِر عُلوم (سَهَارَن فُور) عامَ (١٣٥٩هـ)، وقرأ المُقَرَّرات الدِّراسية، وأخذ الحديث عامَ (١٣٦٢هـ) عن الشَّيخ محمد زكريا، والشَّيخ عبد اللطيف، والشَّيخ منظور أحمد، وغيرهم، ثم وَلِيَ التَّدريس في مدارس مختلفة ثلاث سنين، ثم عاد إلى بلدته، وقاوم فتنة الارتداد، كان على صلة قوية مع جماعة الدعوة والتبليغ، وعُنِي بإقامة الكتاتيب القرآنية في مئاتٍ من القرى والأرياف، وأنشأ الجامعة العربية (هَتَوْرَا) عامَ (١٣٧١هـ/١٩٥٢م)، ووَلِيَ إدارتها وشياخة الحديث فيها، وظلَّ عضوًا في مجلس الشورى لكلٍّ من جامعة دار العُلوم (دِيوبَنْد)، ودار العُلوم ندوة العلماء، ودار الرشاد (باره بنكي)، وغيرها من المدارس والجامعات، أخذ السلوك عن الشَّيخ الشاه أسعد الله. تُوُفِّي وهو ابن سَبع وسبعين سنة. من آثاره: «تسهيل التجويد»، و«أحكام الميت»، و«آداب المعلمين»، تُوُفِّي في ٢٣ ربيع الآخر، الموافق ٢٨ أغسطس في (لَكْنَاؤ)، ودُفِنَ في (بانده) انظر: موسوعة علماء ديوبند، ص: ....

إجـراء مـسابقات حفـظ القـرآن الكـريم وتجويـده وترتيله؟ هل هي فكرة اخترعها من عند نفسه أم استفادها من غيره؟

فقال الشيخ: ذات مرة كنت على رحلة العمرة في المملكة العربية السعودية، فلقيني بعض الخريجين من جامعة فلاح دارين/غجرات، ومنها تخرجت أنا بدوري. فقلت لهم: ما الذي جاء بكم هنا؟ فقالوا: جئنا للمشاركة في مسابقة حفظ القرآن الكريم التي تقيمها مملكة العربية السعودية على مستوى العالم، و تستضيف كبار الحفظة والمقرئين من العالم. فحدابي الشوق إلى أن أحضر هذه البرامج، وفعلا صحبتهم إلى فندق «إنتر كونتنتل» مسرح المسابقة. وأعجبني البرنامج كثيرًا، وشجعني على أن أحذو حذوهم. ورجعت إلى الحرم الشريف، ودعوت الله تعالى من أعماق قلبي أن يوفقني لإقامة مثل هذا البرنامج الممتع. ثم تواصلت مع القائمين على البرنامج، وفعلا وجهوا إلي دعوة للمشاركة فيه في العام اللاحق. ومن سوء حظي أني كنت في «ممبائ» أستعد للرحلة إذ انشبت الحرب بين العراق والكويت، مما حال دون الرحلة، وعدت إلى «غجرات». وفي العام التالي وجهوا إلي الدعوة مرة أخرى للمشاركة، فحضرته وعزمت على أن أجري مثله في بلدي الهند على مستوى الدولة.

موقفه من إدخال التعديلات في المناهج الدراسية في المدارس الدينية الهندية:

سئل الشيخ ذات يوم: كثرت الدعوات إلى إدخال التعديلات في المناهج الدراسية في المدارس الدينية الهندية الخاضعة للجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند،فما موقفكم منها؟ وخاصة أنتم أحد أعضاء المجلس الاستشاري فيها؟

فقال الشيخ: بالنسبة للمناهج الدراسية في جامعتنا في «أكل كوا»، فقد استقينا ما يخص الفقه الإسلامي وتدريسه ما تتبعه الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند، وبالنسبة للأدب العربي استفدنا مما تتبعه دارالعلوم ندوة العلماء/لكناؤ، بالإضافة إلى بعض الجامعات العربية، ونركز- نظرا إلى الأوضاع الراهنة- على تعليم الفقه الإسلامي والأدب العربي.

وليس المهم المناهج الدراسية أو قضية الجديد والقديم بقدر ما يهمنا إعداد الرجال وتربيتهم، و أصبحنا اليوم نعاني قلة العناية بإعداد الرجال بصفة عامة، فهذه المدارس يتخرج منها كل عام آلاف مؤلفة من الطلاب، وهم كالإبل المئة لاتكاد تجد فيها راحلة.

كما أقامت الجامعة معاهد التدريب الصناعي في ست مدن:

١- معهد مولانا آزاد للتدريب الصناعي، في أحمد نغر/مهاراشترا.

٢- معهد وسئي والا، في بهاؤ نغر/ غجرات.

٣- معهدالمقرئ صديق أحمد للتدريب الصناعي، في قرية «منجهلي» بير، مهاراشترا.

٤- معهد الدكتور ذاكر حسين للتدريب الصناعي، أنوا، مهاراشترا.

٥- معهد الفلاح للتدريب الصناعي، ماليكاؤن، مهاراشترا.

٦- معهد كوساري الخاص للتدريب الصناعي، سورت، مهاراشترا.

نظرة عابرة على مختلف أقسام الجامعة ومواعيد تأسيسها وعدد الطلاب والخريجين منها:

الأقسام	عام التأسيس	عدد الأساتذة	عدد الطلاب عام ٢٠٢٤-٢٠٢٥م	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤-٢٠٢٥م	عدد الخريجين حتى عام ٢٠٢٤-٢٠٢٥م
قسم المعهد الديني الابتدائي	١٩٧٩م	٨٩	٥٨٥٨	١٢٨٢	١٩٤٣٢
قسم تحفيظ القرآن الكريم	١٩٨٠م	١١٧	٣٢٧٠	٥٣٧	١١٥٤٤
قسم إجازة القرآن الكريم	٢٠١٧م	٨	١٦٠	١٢١	٥٩٤
العالمية	١٩٨٢م	١١٢	١٩٢٤	١١٦	٦٢٨٢
قسم التخصص في الفقه والإفتاء	٢٠٠٧م	٣	١٠	١٠	١٨٧
قسم الدعوة (الإنجليزية)	٢٠١٢م	٤	١٦	١٦	١٣١
قسم التجويد والقراءات	١٩٨١+٢٠١٧		حفظ+كتب	١٣٢+١٢١	٣٢٢+٥٩٤
قسم الكتاتيب القرآنية	١٩٨١م		١٤٤٢٦٥	١٧٠١٥	٢٨٣٢٧٨
قسم قراءة القرآن نظرا(فرع الجامعة)	١٩٨٢م		٢٨٦٦٤	٣٥٦٦	٨١٦٩٥
قسم تحفيظ القرآن(فرع الجامعة)	١٩٨٢م	٢٤		٦١١	١٥٥٣٨
قسم العالمية (فرع الجامعة)	١٩٨٢م			١٠٩	٢٨٠٥
المدارس والكليات العصرية التابعة للجامعة	١٩٨٢م		١٧١٢٩	١٦١٠	١٦٨٤٧
آئي تي آئي(I.T.I)	١٩٩٣م		٣٨٥	٢٣٦	٤٢٣٢
فروع الـ(I.T.I)	٢٠٠٥م		٤٩٩	٢٤٤	٣١٥٠
كلية أحمد غريب الطبية اليونانية	١٩٩٦م	٥٧	٢٨٤	٥٧	٩٨٠
كلية الفنون التطبيقية (polytechnic) التابعة للجامعة	٢٠٠١م		٤٣٢	١٠٧	٣٤٠٥
كلية د. الصيدلية (d pharmacy) التابعة للجامعة	٢٠٠٣م		١٠١	٣٨	١٤٤٨
كلية علي الألانة الصيدلية (Ali Allana d) (pharmacy	٢٠٢٠م		٩٨	٤٠	١٣٩
كلية علي الألانة بي. الصيدلية(Ali Allana b) (pharmacy	٢٠٠٦		٣٤٦	٨٢	٩٠٧
كلية علي الألانة إيم. الصيدلية(Ali Allana m.) (pharmacy	٢٠١١م		٣٣	٢٦	١٤٨

كلية علي الألانة الصيدلية (الدكتوراه)	٢٠١١م		١٨	٠١	٠٥
مدرسة علي الألانة (الأردية)	١٩٩٨م		٣٩٨	٩٧	١٢١٢
المدرسة الثانوية العصرية	١٩٩٧م		١١١٢	١١٥	١٤٤١
المدرسة الابتدائية العصرية	٢٠٠١م			٢١٤	٣١٨٥
كلية المعلمين	٢٠٠٤م		١٠٠	٤٨	١٣٩٩
كلية دي،إي،إيل،إي دي (الأردية	٢٠٠٣		١٠٥	٦٥	١٢٤٠
كلية الهندسة	٢٠١٠م		٢٠٧	١٣٠	١٤١٦
إيم،بي،بي إيس+ بي جي(M.B.B.S+P.G)	٢٠١٣م	٥٥٠	٨٠٠+٨٦	١٠٧+٢٩	٥٦٩+٢٩
كلية القانون التابعة للجامعة	٢٠٢٠م		١١٣	١٦	٣٢
مركز الأم حواء للتمريض Mother Hawwa) (Nursing Institute في أكل كوا	٢٠٢٢م	٦	١٧٦	٠٠	٠٠
المجموع	*		٢٠٧٠٠٥	٢٦٩٢٧	٤٦٦٨٤٦

الدورات التدريبية:

١ – التعليم عند بعد (NIOS)

SSC	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤–٢٠٢٥م	مجموع عدد الخريجين
٢٠٠	٢٦٦	٢٠٠٢
HSC	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤–٢٠٢٥م	مجموع عدد الخريجين
١٠٠	١٠٠	١٨٥

الدورات المهنية:

أ– الدبلوم في الخياطة:

عدد الطلاب	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤–٢٠٢٥م	مجموع عدد الخريجين
٨٠	٨٠	٢٤٣٤

ب– الدبلوم في التجليد:

عدد الطلاب	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤–٢٠٢٥م	مجموع عدد الخريجين
٨٠	٨٠	١١٩٠

ج: الدبلوم في البصريات (Diploma in optical)

عدد الطلاب	عدد الخريجين عام ٢٠٢٤–٢٠٢٥م	مجموع عدد الخريجين
٦٣	٦٣	١٢٥٧

حفظة القرآن الكريم والخريجون الذين أكملوا دراسة (ssc) ودراسة (hsc) و(vocational):

ر. س	الطلاب	عدد الخريجين
١	طلاب جامعة أكل كوا وفروعها الذين اجتازوا اختبار (ssc)	٨٩٣٩
٢	طلاب جامعة أكل كوا وفروعها الذين اجتازوا اختبار(hsc)	٣٤٨٩
٣	خريجو جامعة أكل كوا في مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (B.A) من جامعة مولانا آزاد الحرة	٩٣٦
٤	خريجو جامعة أكل كوا في مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (M.A) من جامعة مولانا آزاد الحرة	١٤٤
٥	الطلاب الحفظة للقرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (B.U.M.S)	٦٧
٦	خريجو مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (Pharmacy)	٣٩
٧	خريجو مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (POLYTECHNIC)	١٠٠

٨	خريجو مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (D.EL.ED) الأردية	٣٣٤
٩	حفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (I.T.I)	١٧٢
١٠	خريجو جامعة أكل كوا في مرحلة العالمية وحفظة القرآن الكريم الذين اجتازوا اختبار (B.A) من جامعة يسونت راؤ تشوهان/ناسك	١٦١

مركز تعليم الحاسوب التابع لجامعة أكل كوا:

(١) دي.تي.بي (D.T.P):

التدشين	عدد الأساتذة	عدد الطلاب عام ٢٠٢٤-٢٠٢٤	عدد الخريجين
عام ٢٠٠٢	١	٣٠	٣٠

(٢) الدبلوم في تطبيقات الحاسوب

(Diploma in cumputer Application) :

التدشين	عدد الأساتذة	عدد الطلاب عام ٢٠٢٤-٢٠٢٤	عدد الخريجين
عام ٢٠١٢	١	١٦	١٦

(٣) الدبلوم في تطبيقات الحاسوب، والحساب التجاري، ودورة النشر المكتبي متعدد اللغات

(Diploma in cumputer Application and business multilingual dtp course):

التدشين	عدد الأساتذة	عدد الطلاب عام ٢٠٢٤-٢٠٢٤	عدد الخريجين
عام ٢٠١٩	٤	١١٠	١١٠

(٤) الدبلوم في اللغة الأردية

(Diploma in urdu language):

التدشين	عدد الأساتذة	عدد الطلاب عام ٢٠٢٤-٢٠٢٤	عدد الخريجين
عام ٢٠١٩	١	١١٠	١١٠

الخدمات الاجتماعية:

أسس الشيخ الوستانوي لتقديم الخدمات الاجتماعية إدارة المشاريع،التي تنظر في أحوال الأمة الإسلامية، وحاجاتها ومتطلباتها، وتضع المشاريع التعليمية والثقافية والبنائية والخيرية والصحية، وتوفر الوسائل والأسباب اللازمة لها، وتنفذها بطريقة مهنية في مختلف ولايات الهند.

وقد استكملت هذه الإدارة خلال عام ٢٠٢٤م (١٤٠٤) مشروعًا، ونفع بها (٦٦٨٧٢٠) نفرًا، وأضاء لهم بصيصًا من النور والأمل. وهذه المشاريع هي:

١- المركز الاجتماعي:

يشكل الإسلام ثاني أكبر الأديان في الهند، فقد بلغ عدد أتباعه (١٩٥) مليونا، والمساجد من أهم المتطلبات الأساسية لعبادة المسلمين، وتعليمهم وثقافتهم وبث روح الأخوة بينهم. فإنه يلعب دورًا هامًّا في نشر الإسلام وتوسعة نطاقه. ونظرًا إلى ذلك أنشأت الجامعة (٧٤) مركزًا اجتماعيًّا.

عدد المراكز العام	٧٤
عدد المستفيدين عام ٢٠٢٤م	١١٠٢٥
عدد المشاريع المكتملة عام ٢٠٢٤م	٧٤٥٤
إجمالي عدد المستفيدين إلى عام٢٠٢٤م	١١١٩٩٩٥

٢- مشروع المياه (المضخات اليدوية، والمضخات الآلية، وخزانات المياه):

يعيش عدد كبير من سكان الهند في القرى والأرياف، حيث لايتيسر لهم الماء الصافي للشرب؛

بل يعاني عدد كبير من السكان شح المياه الصافية. ونظـرا إلى هـذه المـشكلة أكملـت الإدارة (٦٣٦) مشروعًا متمثلا في المضخات اليدوية، والمضخات الآلية، وخزانـات الميـاه في مختلـف ولايـات الـبلاد. وساعدت الناس على توفير المياه الصافية.

عدد المشاريع المتكاملة عام ٢٠٢٤م	٦٣٦
عدد المستفيدين عام ٢٠٢٤م	٩٦٩٦٠
عدد المشاريع المتكاملة حتى عام ٢٠٢٤م	١٢٢٤٥
إجمالي عدد المستفيدين إلى عام٢٠٢٤م	٢٤٥٣٦٥٩

٣- كفالة الدعاة والمدرسين:

الدعوة والتبليغ مسؤولية كل مسلم، كما نبه عليه الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «فليبلغ الشاهد الغائب»، وتحقيقًا لذا تقدمت الجامعة بالمساعدات إلى دعاة الإسلام، وكفالتهم، ليبلغوا كلام الله تعالى وتوجيهاتـه وإرشـادات الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى الأصقاع النائية البعيدة على وجه صحيح، فيكونوا مسلمين كاملين ومواطنين صالحين نافعين. وقامت إدارة المشاريع بكفالة (٧٥) داعيةً ومدرسًا في العام الماضي.

٤- توزيع طقوم الإفطار والإفطار الجماعي:

كـم مـن المـسلمين في مختلـف أنحـاء الـبلاد ممـن يعانون الجوع والإفلاس ولايجدون ما يفطرون عليه في صـومهم، فقامـت الجامعـة بتوزيـع طقـوم الإفطـار، وإعداد الإفطار الجماعي في مختلف الأنحاء.

الإفطار الجماعي	
إفطار جماعي	٢٠٥
عدد المستفيدين حتى عام٢٠٢٤م	٥٥٨٣٢
الإفطار الجماعي حتى عام ٢٠٢٤م	٥٠٧٨
إجمالي عدد المستفيدين	٣٢٦٤٦٤
توزيع طقوم الإفطار	
طقوم	١٦٦٧٧
عدد المستفيدين حتى عام٢٠٢٤م	١١٠٠٢٩
طقوم موزعة حتى عام ٢٠٢٤م	٢٩٨٤٧٣
إجمالي عدد المستفيدين	١٥١٦٧١١

٥- توزيع لحوم الأضاحي:

كـما لايخفـى أن عـددًا غـير قليـل مـن المـسلمين يعيشون تحت خط الإفلاس، ولايتوفر لهم اللحوم طـوال السنة حتى في أيـام الأضـاحي، فلايـشاركون المسلمين في أفراح عيد الأضحى، فوضعت الجامعة مشروعًا لتوزيع لحوم الأضاحي بين مستحقيها.

تقسيم لحوم الأضاحي/طقوم الأضاحي	
عدد الطقوم	٦٦٠٥٤
عدد المستفيدين عام ٢٠٢٤م	٣٣٠٢٧٠
عدد الطقوم عام ٢٠٢٤م	١٣٨٦١٠٧
إجمالي عدد المستفيدين	٦٢٣٥٩٣١

٦- توزيع حقائب المدارس:

كثير من الطلاب المسلمين الفقراء لايتمكنون

من مواصلة دراستهم لعجزهم عن توفير وسائل التعليم والدارسة، فرغَّبتهم الجامعة في التعليم، وحدا بهم إلى المدارس ووفرت لهم حقائب المدارس. وبلغ عدد الحقائب الموزعة حتى عام ٢٠٢٤م (١٠٦٨٥) حقيبة.

٧- توفير فرص العمل والعيش:

تحاول الجامعة توفير فرص العمل والتجارة للفقراء العاجزين عن ذلك، حتى يتحملوا نفقات عوائلهم دون أن يكونوا عالةً على غيرهم. وفي هذا الإطار وفرت الجامعة لثلاث عوائل وسائل العمل والعيش، متمثلة في ثلاثة أنواع من الأسباب.

الوسائل والأسباب	٣
عدد المستفيدين عام ٢٠٢٤م	١٥
ما تم توزيعه حتى عام ٢٠٢٤م	١٩٨٦
إجمالي عدد المستفيدين	١٢٦٧٧

كما توزع الجامعة الملابس الدافئة في أيام الشتاء، وبلغ إجمالي عدد المستفيدين منها حتى اليوم (٦٢٣٨٠) نسمة.

وتصرف الجامعة للأيامى معاش التقاعد الذي يعينهن على العيش، وبلغ عددهن حتى عام ٢٠٢٤م (٣٢٧).

و وزعت (١١٦٧) ماكينة خياطة، واستفاد من هذا المشروع (٥٨٣٥) نسمة.

قالوا فيه:

وقع رحيل الوستانوي على الأوساط العلمية والشعبية صاعقةً، فأعربت عن أسفها وتألمها بكلمات تعبر عن عمق الصدمة، وتسيل حزنًا وكمدًا، نسوق كلمات بعضهم فيما يلي:

١- قال رئيس الجامعة فضيلة الشيخ أبو القاسم النعماني- حفظه الله- في رسالة عزائه إلى نجلي الفقيد وذويه، وهو يبدي منتهى أسفه على وفاته:

«لقد فارقنا حضرة والدكم الشيخ غلام محمد الوستانوي – خادم القرآن الكريم والمساجد، والعضو الناشط في مجلس الشورى بدارالعلوم/ ديوبند،- بعد معاناة مرض طويل إلى دارالبقاء، ووقع نعي وفاته صاعقةً علينا نحن خدمة دارالعلوم/ديوبند، فإنا لله وإنا إليه راجعون. إن لله ما أعطى وله ما أخذ، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، وقمنا بإهداء الثواب إلى روحه، والدعاء له بالمغفرة والعفو عند الله تعالى. و كان رحمه الله شخصيةً بارزةً معروفةً شهيرة، وعالمًا دينيًّا جيدًا، ومربيًا عطوفًا ومحبًّا للرسول ﷺ، وفي طليعة الساعين العاملين في مجال الدين. وقام بنشر شبكة الكتاتيب الدينية القرآنية مما يعز مثيله اليوم. كما لاتنسى خدماته العبقرية في إنشاء المساجد،

وستظل محفورة في جبين الإنسانية. كتب الله تعالى البقاء والخلود لجميع مؤسساته ما بقي الليل والنهار. وكان على صلة قوية وطيدة مع الزاهد العابد العالم الشهير شيخ الطريقة الشيخ الحافظ صديق أحمد الباندوي رحمه الله، وله إجازة وخلافة منه، و لاشك أن رحيله يشكل خسارةً كبرى للأمة الإسلامية. فنتقدم بواجب العزاء إليكم جميعًا في مثل هذه الساعة الحزينة، وكان بودي أن أحضر له إلا أن أوضاعي الصحية لاتسمح بذلك....».

٢- وقال فضيلة الشيخ السيد أرشد المدني حفظه الله- رئيس جمعية علماء الهند، ورئيس هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند- في بيان أصدره على وفاة الوستانوي:

«بلغني حالا بعد صلاة الظهر أن الشيخ الوستانوي- مؤسس مالايحصى من المدارس والكتاتيب، ومراكز التعليم العصري- قد جاءه أجله المسمى بعد أن عانى مرضًا طويلا. فإنا لله وإنا إليه راجعون. كان الشيخ من خريجي جامعة مظاهرعلوم/سهارنفور، وقد رزقه الله تعالى ملكة كبيرة لإقامة المؤسسات التعليمية الدينية والعصرية لأبناء المسلمين وبناتهم. ويتخرج كل عام من المدارس التي أقامها الشيخ آلاف مؤلفة من حفظة القرآن الكريم، ويتخرجون في العلوم الإسلامية العربية. وأنفق الشيخ مئات الملايين من الروبيات لإنشاء كلية طبية (M.B.B.S College) لتعليم الطب الآلوباثي، وهي ناشطة في تقديم الخدمات التعليمية الطبية منذ سنوات عديدة، ويتلقى فيها الشبان المسلمون الطب. واليوم إذ جاءه الأجل المسمى، فلبى دعوة ربه، ولقي بالرفيق الأعلى، صبَّ الله تعالى عليه شآبيب مغفرته وعفوه، وحفظ أولاده. آمين. ومن فضل الله تعالى على الشيخ أنه وكل نشاطاته وهو على قيد الحياة إلى ابنيه المولوي محمد حذيفة والمولوي محمد أويس، بعد أن أعدهما للمستقبل، فهم ساهرون عليها، ويسعون جاهدين للتقدم بها وتطويرها».

٣- وقال فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي- نائب رئيس جامعة دارالعلوم/ديوبند- وهو يعرب عن غاية أسفه وتألمه على رحيل الوستانوي رحمه الله: «لا أرى أحدًا سبق الوستانويَّ بما قام به من أعمال وإنجازات على مختلف المستويات الحيوية، أو يلحق به في ذلك؛ فكان عديم المثال، نسيج وحده، فاقد النظير، قد أعد للأمور أقرانها، له مزايا لاتعد ولاتحصى؛ فهو دمث الأخلاق سهلها، ضحوك باسم، ذو روح خفيفة، ظريف المحاضرة، لايمل جليسه أبدًا، فلايلقى أحدًا إلا قابله بنفس مرحة، كما عهدنا بعض الناس إذا لقيتهم رأيتهم عبوسًا

قمطريرًا؛ كان صافي النية، سليم دواعي الصدر، ذا قلب من ذهب، لاينوي لأحد سوءًا، كثير الرماد، مبسوط اليد، يألف ويؤلف. ولم يقدر لي أن أصاحبه طويلا، ولم أزر جامعته إشاعة العلوم/أكل كوا إلا مرة في الحياة، وبالتحديد قبل سنة فصاعدًا، وربما استكثرت من الاستفادة منه لو وُفِّقتُ لذلك. وكان يملأ قلب كل من يلقاه فرحًا وانشراحًا وسرورًا، وهو من فضل الله تعالى عليه. ولم أجده معجبًا بنفسه، يتبجح بما قام به من أعمال وإنجازات، ويتحدث عنها بسبب أو من غير سبب، على عكس كثير ممن يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وربما كان يكره أن يتحدث غيره عن إنجازاته بين يديه. ولو شاء أن يعد من أصحاب المال والعقارات الموسعة، أو يتقلب ليله ونهاره في أحضان النعيم والبذخ والترف لهان له ذلك، ولوشاء أن يتخذ لنفسه قصرًا شامخًا لتمكن من ذلك، ولكنه آثر حياة الزهد والبساطة، وكان بيته على منتهى البساطة، وفي السنوات الأخيرة من عمره تبرع بعض أحبته- نظرا إلى ما كان يواجه من الضيق في بيته القديم- بإنشاء بيت له، فلم يتحول إليه إلا بشق النفس. ومن أهم خصائصه وميزاته أنه لم يغفل- رغم زحمة الأعمال والنشاطات عنده- عن تربية أولاده، فرباهم على العلم والصلاح والبساطة في الحياة، ولوشاء أن يوفر لهم السيارات الفارهة لما حال دون ذلك شيء، فكان هو وأولاده كلهم أبعد شيء من مثل هذه العواطف والمشاعر. ولا أعدو الحق لوقلت: لو أردنا أن نتخذ قدوة وأسوة في الحياة لكان أحرى بنا أن نتخذه نموذجًا في مختلف مناحي الحياة المثالية البشرية. وكان أبعد شيء من حب المال والجاه والمنصب مع أن حب المال والجاه آخر النقائص البشرية التي يتطهر منها حتى الزهاد وأتباع الطرق. وإنما كان همه الإقبال على الله تعالى ونفع الناس، والناس مقبلون إليه، متهافتون عليه. وكان كثير الذكر لله تعالى، وكثير العناية بتلاوة القرآن الكريم والاستماع له. ولو صليتَ معه لَهَالَكَ ما عليه من تجويد القرآن الكريم و ترتيله، وتغلب عليك حال عجيبة. ورأيته يستمع إلى الأطفال يقرؤون القرآن الكريم وهو مصغٍ إليه بكليته.وتجده هادئًا مطمئنًا مهما استعصت عليه الأمور، وتعقدت عليه المسالك، يخوض غمار الإنجازات والأعمال العبقرية مؤمنًا بنصر ربه وتوفيقه، مخلصًا لدينه وأمته. وكان له نصيب الأسد في تمويل كثير من المشاريع في دارالعلوم/ديوبند، فهذه المكتبة المركزية قيد اللمسة الأخيرة وفر مبلغًا كبيرًا لها، أنفقت على بلاطها. وهذا مبنى سكن العوائل في الجامعة كان له حظ كبير في تمويله. وحدث عن غيرهما من المشاريع ولا

حـرج. و كـان أكـره شيء إليـه الريـاء والـسمعة، فلايرائي بشيء من أعماله وأذكاره وعباداته. وإنما كان يحاول أن يرضي بها ربه. ولو اختصرت القول لقلت من غير مغالاة: قد اجتمعت فيها من الخصائل والميزات ما يمكن أن يجتمع في بشر. فكان رجلا عظيمًا عظيمًا بمعنى الكلمة. وكان بإمكانه أن يكسب أموالًا طائلةً من خلال رسوم الدراسة في الكلية الطبية التابعة لجامعته، ولكن كم عفى عن الراغبين في الدراسة رسومهم الدراسية فيها، فكان خير معوان على تلقي فقراء المسلمين فيها العلوم الطبية التي تتطلب أموالا يعجز عنها عامة البشر في العصر الحاضر. ونرى كثيرًا من القائمين على المدارس والكليات إذا زارهم الأغنياء أو زاروهم عرضوا عليهم-أي على الأغنياء- مشاريع لمؤسساتهم التعليمية التي تحتاج إلى من يمولها أملا أن يمدوا إليها يدًا حانية، وأما الوستانوي فكان على خلاف أولئك كلهم، فلم أجده يتملق لأحد من الأغنياء لاستمالة قلبه إلى مشاريعه وتمويلها، وإنما كان همه العمل والسعي الدؤوب، وكان الناس يرون معطياته وثماره، فيتسارعون إلى مد يد العون والمساعدة له ليواصل مشاريعه التعليمية والتربوية. ولو أن الشعب المسلم الهندي الكادح المكبوت المجزأ قام له عدد من أمثاله لشهدت حياتهم الاجتماعية تغيرًا وانقلابًا وثورةً صالحة. وذكرتُ له ذات يوم تناقص عدد الطلاب في المدارس الدينية، فاندفع قائلا بكل ثقة وطمانينة: لقد أنشأت في طول البلاد وعرضها شبكةً من الكتاتيب الدينية التي ستغذي بإذن الله تعالى هذه المدارس بالطلاب والدارسين، حيث ينتقلون إليها من الكتاتيب لإكمال دراستهم الدينية. حقا لقد كان رجلًا عبقريًّا، لو بلغ غيره ما بلغه هو لشمخ أنفه وأصيب بالزهو والكبر، أما هو فلم يقبل على الدنيا ولم يعلق قلبه بها و زينتها وزخارفها، وكان معوله في كل مايقوم به من الأعمال والمشاريع هو الله تعالى، ولايعول فيها على أحد، فقد كان رجل الدنيا وواحدها:

فإنّما رجلُ الدُّنْيَا وواحدها

من لَا يعوِّلُ فِي الدُّنْيَا على رجل

ولم يجرِ وراء الدنيا فأتته وهي راغمة عفوا صفوا. ومما يبعث على العجب العجاب أن أولاده اقتدوا به في ذلك، فلم يتربوا على البذخ والترف والعنهجية شأن أولاد كثير من أصحاب المال والدنيا والمتهافتين على فتاتها، ويصدق عليهم قول الشاعر:

بأبه اقْتدى عديٌّ فِي الْكَرم

وَمن يشابه أَبَهُ فَمَا ظلم».

٤- وقال فضيلة المفتي محمد راشد الأعظمي

حفظـه الله - نائـب رئـيس الجامعـة الإسـلامية: دارالعلوم/ديوبند الذي أوفدته الجامعة إلى «أكل كوا» بعـد وفاتـه لأداء واجـب العـزاء إلى أنجالـه وذويـه، وشـارك حفلـة التـأبين بجامعـة أكـل كـوا- عـلى وفـاة الوسـتانوي رحمـه الله- في كلمتـه: «لقـد قيـضه الله تعـالى لخدمـة الـدين والمـدارس الدينيـة والمـساجد والقـرآن الكـريم كثـيرًا، فكـم أنـشأ مـن الكتاتيـب القرآنية والمدارس الإسلامية والمؤسسات التعليمية العصرية التي نفعت الأمة الإسلامية كثيرًا، والتي شـكلت نموذجًـا رائعًـا للعمـل والـسعي الـدؤوب لخدمة الأمة والمجتمع، فما أكثر الذين حذوا حذوه في ذلك، فهو أبو عذر هذه السلسلة المباركة، وكان قد ملئ إلى مشاشه عطفًا و شفقةً ورفقًا بالمسلمين وبطـــلاب المـــدارس الإســـلامية والـــواردين والصادرين، و حرصًا على نفع الأمة، وبساطةً ولينًا. وحقًّـا كـان شخـصيةً عبقريـةً لاتمحـي ذكـراه في القلوب، ولابصماته على مختلف المستويات على مر القرون، ولم تقتصر نفحات جامعة الفقيد هذه على الهند وأصقاعها؛ بل تجاوزتها إلى أكناف العالم، حيث انتشر خريجوها في البلاد الإسلامية وغيرها يحملون مشاعل العلم والمعرفة والضياء والنور. ولا شك أنه لقي الألاقي في أول مشوار حياته، وعمله العبقري هذا؛ ولكن صبر وثابر حتى جاءه نصر الله وحالفه التوفيق الإلهي في كل خطوة خطاها لصالح الأمة الإسلامية. وأنا أتقدم بواجب العزاء أصالة مني ونيابة عن الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند مسؤولين وأساتذةً وطلابًا، داعيًا الله تعالى أن يملأ الله تعالى قبره نورًا، ويغفر زلاته، ويبدل سيئاته حسنات، ويرفع درجته في جنات الفردوس، وألهم أولاده وذويه ومحبيه الصبر والسلوان».

٥- وقـال فـضيلة الـشيخ خالـد سـيف الله الرحمـاني - مـدير المعهـد الإسـلامي/حيـدر آبـاد، ورئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهنـد- في رسـالة عزائـه إلى ذوي الفقيـد الغـالي: «إن رحيل حضرة والدكم الكريم خادم القرآن ومؤسس ومشرف كثير من المدارس والمعاهد الدينية فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي سبب صدمةً لا لكم ولـذويكم وحـدكم؛ بـل للأمـة الإسـلامية الهنديـة كلها. وماقام به الفقيد من الخدمات الجليلة الغالية في الدعوة والإصلاح والتعليم والتربية يعز مثيله في القريـب والبعيـد. فقـد قـام بنـشر شـبكة الكتاتيـب والمدارس الدينية في كل شبر من أشبار البلاد، بعد أن سادها سحب الجهل وعمها الأمية، وتناساها الناس لوضعها الاقتصادي المتدهور، فأشعل فيها مـصابيح العلـم والمعرفـة. وأضـاء بـالعلم حتـى البيوتات التي حرمت نور العلم جيلًا بعد جيل. كما

أنشأ الفقيد مؤسساتٍ تعليميةً عصريةً جنبًا إلى جنب المدارس الدينية، لقد رزقه الله تعالى قلبًا مواسيًا، وعقلًا واعيًا، مما كان يحدو به إلى الأوساط الإسلامية الفقيرة التي تشكو قلة الإمكانيات المادية، و يعلمهم كيف ينشئون وينظمون المؤسسات والمراكز. ولقد قام في مجال التعليم بما يعجز عنه الأكاديميات الكبرى، ولو كانت بعضها لبعض ظهيرًا. ونوى كاتب هذه السطور إنشاء المعهد العالي/حيدر آباد فقمت بزيارة له بدعوة منه،وكنت أقدم رجلاوأؤخر أخرى في إنشاء هذا المعهد آنذاك، ولكن لقيت منه تعزيزًا وتشجيعًا كبيرين، فما يقوم به المعهد من الخدمات للفقيد نصيب منها...».

٦- وبعث الشيخ محمد صالح الحسني- الأمين العام لجامعة مظاهر علوم/سهارنفور- برسالة عزاء إلى أنجال الشيخ الوستانوي قال فيها:

«وقع علي نعي وفاة فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي ظهر يوم الأحد ٥/ذو القعدة عام ١٤٤٦هـ = ٤/مايوعام٢٠٢٥م بعد معاناة مرض دام مدةً طويلةً- وقع علي صاعقةً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وإن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى. و رزق الله تعالى الفقيد الغالي كثيرًا من الميزات و الخصائص، فقد كان ناصحًا مخلصًا للأمة الإسلامية، وعطوفًا عليها، ومما يمتاز به الشيخ أيضًا محاولاته المشكورة في تزويد الجيل المسلم بالعلوم الإسلامية والعصرية، وتوفير الوسائل والأسباب لذلك.... وتوسع نطاق خدمات الشيخ الدينية كثيرًا، فقد قامت على يده مالايحصى من الكتاتيب والمدارس والمساجد، جعل الله تعالى ذلك كله في ميزان حسناته، ونفع بها في الآخرة. لقد آلم نعي وفاته جامعة مظاهر علوم/ سهارنفور كثيرًا، وقامت بإهداء الثواب إلى روحه، والدعاء له بالمغفرة والعفو عن زلاته، وتبديل سيئاته حسناتٍ. وأخلف للأمة الإسلامية خيرًا منه».

٧- وقال فضيلة الشيخ بلال عبد الحي الحسني الندوي في رسالة عزاء إلى الأستاذ حذيفة الوستانوي- نجل الفقيد الغالي-: «لوفاة حضرة والدكم وقع عميق في قلبي، فأدعو الله تعالى أن يرفعه درجات، ويحفظ الأعمال التي كان يقوم بها، وبارك فيها، ونحمد الله تعالى أن خلفتموه في القيام بأعماله ونشاطاته جميعًا، فبارك الله فيها. لقد قام حضرة والدكم بأعمال جليلة، وخدماته في المجال التعليمي أظهر من الشمس، لقد انتفعت الملة الإسلامية الهندية كثيرًا بأعماله ونشاطاته. وكان يعاني الأمراض منذ أمدٍ بعيدٍ، وكنت في سفر إذ

باغتني نعي وفاته، ولاشك أن رحيله يشكل حدثًا فاجعًا للأمة الإسلامية كلها، داعيًا الله تعالى أن يخلف للملة الإسلامية خيرًا منه، ويحفظ أعماله وأعمالكم. وسعدت بزيارته غير مرة مع الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي، والشيخ السيد محمد واضح رشيد الندوي رحمهما الله. وكان الشيخ واضح يقول: إنه ليس الوستانوي؛ بل هو البُستانوي الذي غرس هنا وهنا بساتين العلم والمعرفة». وما قام به الشيخ اليوم عن طريق التعليم من الأعمال كان يلبي حاجة الوقت. كان له همم كأمثال الجبال. وعكف على أعماله ونشاطاته حتى لبى نداء ربه. ولا شك أنه يؤجر عليها بإذن الله تعالى. وأتقدم بصفتي أحد خدام جامعة ندوة العلماء- أحرَّ التعازي إليكم، داعيًا الله تعالى أن ينضر هذه الدوحة الباسقة، ووفقكم للمزيد من الأعمال».

٨- وقال الأديب الشهير الشيخ سعيد الرحمن الأعظمي الندوي- مدير جامعة ندوة العلماء/ لكناؤ- في رسالة عزائه إلى أنجال الفقيد الغالي: «لقد بلغ مني الأسى كل مبلغ حين سمعت نعي وفاة حضرة والدكم، وكان له وقع كبير في نفسي. أسأل الله تعالى أن يتغمده بواسع رحمته وغفرانه، ورفع درجاته، وتقبل حسناته، قد عقدنا مجلس دعاء له بالمغفرة والعفو في جامعة ندوة العلماء. كان بيني وبين الفقيد زيارات متبادلة منذ أمد غير قصير، فكان يزور ندوة العلماء فأجتمع به فيها، وقد رحلت إلى «أكل كوا» غير مرة بدعوة منه، وكان يبعث في نفسي أعماله ونشاطاته الفرح والسرور، فقد وفقه الله تعالى للجمع في أعماله بين الدين والدنيا. و رزقه العزيمة والهمة العالية في ذلك. وقام الفقيد بمد شبكة مسابقات القرآن الكريم في طول الهند و عرضها، استفاد منها الطلبة مباشرةً، وقامت على يديه مالايحصى من المساجد والكتاتيب والمدارس الدينية. وأنتم خير خلف لخير سلف، فنتقدم إليكم بأحر العزاء وخالص المواساة. وقد عملت مقالا حوله سيتم نشره في مجلة «البعث» عما قريب....».

٩- وقال الشيخ خالد بن مولانا إسماعيل المنوبري في رسالة عزائه إلى الأستاذ حذيفة الوستانوي: «لقد فارقنا حضرة والدكم التقي مؤسس المدارس والمساجد وخادم الدين المخلص الشيخ غلام محمد الوستانوي، وقلوبنا تحزن، وعيوننا تذرف الدموع. إنا لله وإنا إليه راجعون. إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عند بأجل مسمى. ولتحتسب، أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وغفر لوالديك. كان الفقيد الغالي يجمع بين العلم والفضل والإخلاص والاحتساب، والتواضع

وهضم الذات، والتعليم والتربية، وخدمة الدين. فخدماته مزيج عجيب غريب جدًّا. ولاتزال ذكريات خدماته التدريسية ورفقه بالطلاب مرتسمة في الذاكرة ليومنا هذا، ولن تمحي على مر الدهور والعصور. وكان الفقيد يشكل لكل طالب معلما وأستاذًا عطوفًا، وأبًا رحيمًا، ومصلحًا مربيًا مخلصًا. ورحيله يشكل خسارةً لاتعوض، وثلمةً لاتسد لهذه الجامعة؛ بل للأوساط العلمية والدينية كلها. ولايجود الدهر بمثله إلا على مر القرون والأجيال. أخلف الله تعالى للأمة خيرًا منه. وخدمات الفقيد الغالي الدينية والاجتماعية أظهر من الشمس في رائعة النهار، فهذه جامعة أكل كوا- التي يعتز بها البلاد- وغيرها من آلاف المدارس والمساجد تشكل إرثًا روحانيًّا للفقيد، وزادًا له في الآخرة. وله أعمال دون ذلك لايعلمها إلا الله تعالى. وقد فارقنا الفقيد الغالي ولاتزال باقياته الصالحة ماثلة أمام العيون. غفر الله تعالى للفقيد وبدل سيئاته حسناتٍ، ورفع درجته في أعلى العليين. وكتب لكم ولذويه وأهله الصبر والثبات، وجعلكم خير خلف له، وكان نصر الله تعالى وعونه حليفًا لكم في كل ما تقومون به من أعمال ونشاطات».

١٠- وقال الشيخ محمد أيوب السورتي في رسالة عزائه إلى أنجال الفقيد الغالي وذويه: «يا للأسف، لقد طرق الآذان يوم الأحد ٥/مايو ٢٠٢٥م نبأ حزين للغاية، وهو نعي وفاة الشخصية الناشطة في الهند عامة و في «غجرات» خاصة، ومؤسس جامعة «أكل كوا»، والروح السارية فيها: فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي. فإنا لله وإنا إليه راجعون. اللّٰهم اغفر له، وارحمه، وأدخله جنة الفردوس، وأبدله دارًا خير من داره. ومما لاشك فيه أن كل مولود في الدنيا لا بد أن يفارقها يومًا من الأيام، ولكن رحيل بعضهم قد يسبب حزنًا وألما عميقين، وخسارةً لاتعوض. لقد قام الشيخ الوستانوي بإنجازات مثالية في حياته، يعز مثلها في القريب والبعيد، بدأ خدماته من على منصة مؤسسة دينية صغيرة، ونذر حياته لها، حتى حول هذه المدرسة الصغيرة إلى جامعة إسلامية أهلية تحتضن أكبر عدد من الطلاب في رحابها في شبه القارة الهندية بالإضافة إلى آلاف النشاطات الخيرية وعشرات الكتاتيب والمدارس الدينية التي نشطت في تحفيظ آلاف مؤلفة من الأطفال القرآن الكريم، وخلف وراءه بصمات دينية لايعلمها إلا الله تعالى. وقلما يوفق المرء للنهوض من الثرى إلى الثريا خلال مدة لاتتجاوز نحو أربعة أو خمسة عقود من الزمان. وسيعالج أعماله وإنجازاته بالتفصيل أساتذة هذه المدارس والكتاتيب الدينية وحق لهم ذلك، وإنما

أكتفي بهذه الكلمات الموجزة عزاء على الفقيد الغالي، داعيًا المولى سبحانه وتعالى أن يغفر له ويعفو عنه، ويرزق أولاده وأحفاده وذويه الصبر والسلوان على هذا المصاب الجلل، وجعلكم خير خلف لخير سلف، ويخلِّد أعماله ما بقي الليل والنهار».

١١- وقال الشيخ محمد سعيدي في رسالة عزائه إلى الأستاذ/ محمد حذيفة: «بلغني نعي وفاة حضرة والدكم ظهر أمس، فآلمني ما آلمكم، وأصبت بحزن لايوصف، فإنا لله وإنا إليه راجعون. إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. كان الفقيد الغالي من الرجال المعدودين الذين يشكلون ما لايحصى من منابع الخير والنفع العظيم. فكان خير ماصدق لـ(خير الناس من ينفع الناس)، لقد شاهد بأم عينيه هذه النبتة الضعيفة- مدرسة إشاعة العلوم/أكل كوا- حتى أورقت وأثمرت وآتت أكلها بإذن ربها، على عكس ما نشاهد في عموم الأحوال أن المؤسس للعمل يفارق الدنيا إلى الدارالآخرة، وتستكمل الأجيال اللاحقة ما تركه من الأعمال والنشاطات. وكان الفقيد مزيجًا أحسن وأجمل من العلم والعمل، وخير نموذج للجد الدائب والسعي المتواصل. ولقد أعطاه الله تعالى عاطفةً غير عاديةٍ نحو تعليم القرآن الكريم ونشره وقراءته وإقرائه بالتجويد والترتيل. وكان على صلة عاطفية مع شيخه المفتي مظفر حسين رحمه الله. ومما لاينسى من خيره ونفعه أنه طلب ذات مرة قائمة الرواتب لشيخه المفتي مظفر حسين وغيره من أساتذة جامعة مظاهر علوم/سهارنفور بشقيها، فتكفل نصف الرواتب لهم حتى فارق الحياة على ذلك. وأدعو الله تعالى أن يرزقكم الصبر والسلوان، ويوفقكم للتأسي بخطى الرحيل الغالي، والتقدم بأعماله ونشاطاته للناس عامة وخاصة».

١١- وقال الشيخ محمد أنوار الدين مدير الجامعة الإسلامية الجلالية/ هوجائي في رسالة عزائه إلى ذوي الفقيد الغالي: «بلغنا نعي وفاة فضيلة الشيخ غلام محمد الوستانوي – رئيس ومؤسس جامعة إشاعة العلوم/أكل كوا، وعضو المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند-، في ٥/ذي القعدة عام ١٤٤٦هـ الموافق ٤/مايو٢٠٢٥م يوم الأحد، إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر و لتحتسب. كان الفقيد على صلة وطيدة مع الجامعة الإسلامية الجلالية/هوجائي، وكان على رضى تام بنظامها التعليمي والتربوي، وتشجيع دائم للقائمين عليها، كما كان الشيخ بدر الدين أجمل والشيخ مشتاق أحمد عنفر على صلة قوية مع الفقيد، وكانوا يستشيرونه فيما يعزز جهود

تـصحيح أداء القـرآن الكـريم وتجويـده خاصـة في الولايات الهندية الشرقية. ويأخذون برأيه في ذلك. ولاشـك أن رحيلـه يـشكل نهايـة بـاب مـن أبـواب الخدمة القرآنية. وكانوا يطلقون عليه «خادم القرآن والمـساجد» نظـرًا إلى مـساعيه الجبـارة المتواصـلة في هـذين المجـالين الحيـويين. ومـا قـام بـه الفقيـد مـن العمل العبقري للتوجيه الفكري للجيل الجيد أحق بأن يذكر ويشكر ويحتذى به. تقبل الله تعالى جهوده ومـساعيه كلهـا قبـولا حـسنًا. وجامعـة هوجـائي- مـديرًا وأسـاتذة ومـسؤولين وطلابًـا- تـشاطركم الأحـزان في هـذه المرحلـة الحرجـة. وتقـدم واجـب العزاء إليكم جميعًا».

١٢- وقـال الـشيخ عطـاء الـرحمن القاسـمي – مـدير مؤسـسة الـشاه ولي الله الـدهلوي- في رسـالة عزائه إلى ذويه وأنجاله: «تلقيت حالا نبأ مؤلمًا للغاية، وهـو نعـي وفـاة خـادم القـرآن فـضيلة الـشيخ غـلام محمد الوستانوي – رئيس جامعة دارالعلوم/ديوبند سابقًا، ومؤسس جامعة إشاعة العلوم/أكل كوا-، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وإن القلم ليرتعد فرائصه إذ يلحـق اسـمه بـالترحم عليـه، وكـان الفقيـد كثـير النفـع والبركـات، ولازالـت بـصماته البنـاءة ماثلـة في «أكل كـوا»، والله تعالى هـو الغنـي عـن كـل شيء.... ولاشـك أن رحيـل الفقيـد الغـالي يـشكل خـسارةً لاتعوض للأمة الإسلامية. ندعو الله تعالى أن يتقبل خدماتـه القرآنيـة والدينيـة والتعليميـة و الاجتماعيـة قبولا حسنًا، و يوفقكم و ذويه للصبر والسلوان».

١٣- وقـال الـشيخ محمـد ميـان القاسـمي في رسالة عزائه على وفاة الوستانوي إلى ذويه: «لقد قام الفقيـد مـن الأعـمال والإنجـازات بـما يكفـر سـيئاته ويرفـع درجاته إن شاء الله تعالى. وقلما يجود الدهر بمـن يقـوم بإعـداد الرجـال في كـل مجـال، وقـد أورث الله تعالى الحب له في قلوب الناس بما كان عليه من الولـع بـالقرآن الكـريم. وقـد قيـضه الله تعـالى لإنجـازات وأعـمال لاتتحقـق إلا في قـرون. وخـير مثال على ذلك جامعة إشاعة العلوم/أكل كوا، وما يتبعهـا مـن الكتاتيـب والمـدارس والمؤسـسات التعليمية والتربوية، حفظها الله تعالى من شر كـل حاسـد إذا حـسد. وسـبق أن اجتمعـت بالـشيخ الوستانوي مرات، ولكن قدر الله تعالى لي في العام المـاضي أن أزور الجامعـة، وأتحـدث إلى الـشيخ الوسـتانوي والقـائمين عـلى الجامعـة والطـلاب. فكانت فرصة غالية جدًّا».

وصدق من قال:

ها أنت ترحل فالقلوب وجيب

شيّعتك مـدامـع وقلـوب

* * *

المحدث الشيخ محمد عاقل المظاهري رحمه اللّه

(١٣٥٩هـ-١٤٤٦هـ/١٩٣٧-٢٠٢٥م)

بقلم: **أبو عاصم جميل القاسمي المباركفوري**

يوم الاثنين ٢٩/شوال المكرم عام ١٤٤٦هـ الموافق ٢٨/أبريل عام ٢٠٢٥م استأثرت رحمة الله تعالى بالعالم المحدث الشيخ محمد عاقل المظاهري رحمه الله،عن عمر يبلغ (٧٩) عامًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى. ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، اللّٰهم إنا نؤمن بقضائك و نحتسب عندك أجر الصبر على بلائك، وقال لبيد:

ومَا المَالُ والأهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعٌ

وَلَا بُدَّ يَوْمًا أنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

وقال ابن المقفّع يرثي يحيى بن زياد:

لَعَمْري لئِن كُنَّا فَقَدْناك سَيِّدًا

كَرِيمًا لَهُ حقُّ التَّنَاوُش والفَزَع

لقَدْ جرَّ نفعًا فَقدنَا لَك إننا

أمِنا عَلَى كُلّ الرَّزايا من الجَزَع

فاللهم أكرم نزله، و وسع مدخله، واجزه عن الإسلام خير الجزاء، واجمعنا به مع المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقع نعي وفاته على الأوساط العلمية صاعقةً، ورغم أنه رحمه الله كان يعاني بعض عوارض الشيخوخة منذ الشهور الأخيرة إلا أن أصحابه ومحبيه لم يتوقعوا رحيله إلى الدار الآخرة عما قريب، فقد واصل الشيخ تدريس كتاب صحيح البخاري والحديث المسلسل بالأولية في شهر شعبان، ثم ازداد ضعفًا ونقهًا، فانتقل لتلقي العلاج إلى «حيدرآباد»، فشعر ببعض التحسن في الوضع الصحي، فعاد إلى سهارنفور، وكان يزور المدرسة من حين لآخر إذا وجد خفةً في نفسه. وتفاقم الضعف في شهر شوال، فنقله أصحابه وذووه بعد التشاور بينهم إلى مستشفى خاص في مدينة «ميروت»، فتلقى العلاج بإشراف من الأطباء

البارعين، ثم أشار الأطباء عليهم في ٢٨/شوال ١٤٤٦هـ =٢٧/أبريل ٢٠٢٥م بأن يعودوا به إلى بيته، فعادوا به إلى سهارنفور، فجاءه الأجل الذي إذا جاء لايتأخر في الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا من يوم الاثنين. وصلى عليه الناس بعد المغرب من يومه، ونقلوه إلى مثواه الأخير.

وكان الشيخ محمد عاقل بن الطبيب محمد أيوب رحمه الله من مواليد ٩/ شهر شعبان عام ١٣٥٩هـ = ١٥/أكتوبر عام١٩٣٧م في سهارن فور، وحفظ القرآن الكريم في جامع سهارنفور الشهيرة، ثم التحق بجامعة مظاهر علوم بها، وتخرج منها عام ١٣٨٠هـ، على كبار مشايخها في دورة الحديث الشريف أمثال: الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي- قرأ عليه صحيح البخاري-، الشيخ منظور أحمد خان السهارنفوري- قرأ عليه صحيح مسلم-، ومولانا محمد أسعد الله - قرأ عليه سنن الترمذي-، ومولانا أمير أحمد الكاندهلوي- قرأ عليه سنن النسائي-، كما تلقى بعض المقررات الدراسية على المفتي مظفر حسين رحمه الله أيضًا. ومن زملائه في الدراسة في جامعة مظاهر علوم/ سهارنفور كل من الشيخ محمد يونس الجونفوري- شيخ الحديث بالجامعة سابقًا-، والشيخ شجاع الدين الحيدر آبادي، والشيخ اجتباء الحسن الكاندهلوي.

وعرف الشيخ منذ أيام دراسته في الجامعة بالصلاح والجد في الدراسة وقوة المذاكرة و المطالعة والذكاء والفطنة. وكان الطلاب يرجعون إليه إذا أشكل عليهم أمر في المقررات الدراسية حين كان طالبا بالجامعة كما ذكره الشيخ محمد زكريا رحمه الله في «مذكراته». وعين مدرسًا متطوعًا مساعدًا فيها في ٣٠/جمادى الآخرة عام ١٣٨١هـ/١٩٦١م، وثبتوه في العام القادم عام ١٣٨٢هـ، وقرروا له راتبًا شهريًّا. وأسند إليه تدريس الحديث الشريف عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، كما ولي تدريس سنن أبي داود في قسم دورة الحديث الشريف عام ١٣٨٧هـ، فاستمر على تدريسه نحو خمسة عقود.

وتوفي مولانا أمير أحمد الكاندهلوي- رئيس هيئة التدريس بجامعة مظاهر علوم/ سهارنفور-، فخلفه في منصبه عام ١٣٩٠هـ/١٩٧١م. وكان الشيخ يدًا يمنى للعلامة المحدث الشهير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله في أعماله العلمية، وكان أسند إليه البحث عن المواد والرجوع إلى مظانها. فسنحت له فرص كبيرة لخدمة العلم والدين

بالإضافة إلى تلقي التربية عليه وصقل مواهبه.

من أهم أعماله:

١- تعليقات على الحل المفهم.

٢- مقدمة لكتاب «الكوكب الدري».

٣- تعليقات على «الفيض السمائي».

٤- الدر المنضود شرح سنن أبي داود، وهو أشهر مؤلفاته، وأوسعها قبولًا وشعبيةً في الأوساط العلمية.

٥- تعريف وجيز بجامعة مظاهر علوم باللغة العربية.

كان الشيخ عاقل رحمه الله نحيف الجثة، يخرج من بيته وحده متأبطًا نسخةً من سنن أبي داود أو سنن النسائي، ويسلم على من لقيه عرفه أم لم يعرفه، ويتبسم له، ويدخل الفصل الدراسي من غير أن يبدو عليه نصب أو تعب. والطلاب كلهم على أشد من الجمر في انتظاره. وكانوا خلال محاضراته كأن على رؤوسهم الطير.

قالوا فيه:

أعربت الشخصيات البارزة الهندية عن غاية تألمها على وفاة الشيخ محمد عاقل رحمه الله، فقال فضيلة الشيخ بدر الدين أجمل القاسمي- عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم/ديوبند، وعضو البرلمان الهندي سابقًا، والرئيس العام لحزب الجبهة الوحدوية الديمقراطية الهندية- في تأبينه عليه: «يعتبر رحيل الشيخ عاقل خسارةً علميةً وروحانيةً فادحةً، ففي جانب أصيبت الأوساط العلمية برحيله بالحزن والأسى، وفي جانب آخر تبدي أوساط مريديه وأصحابه الأسى والحزن على فقدهم مربيًا مخلصًا محتسبًا. فلايجدون من يخلفه في مكانه التربوي. والحق أن الشيخ ظل يسقي عطاشى العلوم النبوية بتدريسه ومحاضراته العلمية، كما قام بتزكية قلوب عدد كبير من خلق الله تعالى في زاويته الإحسانية. فأعتبر رحيله فراغًا لايسدُّ. وكنت ألقى كثيرًا من عطفه وشفقته حين اجتماعي به في دورات المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ديوبند».

وقال الشيخ أنيس الرحمن القاسمي- أمير الشريعة في ولايات «بيهار» و«أريسه» و«جهار كهاندا»- في بيان صحفي له: «رحيل شيخ الحديث القدوة محمد عاقل رحمه الله يشكل خسارةً لاتعوض للأوساط العلمية والدينية. فقد كان نعمة كبيرة للأمة الإسلامية، وخير خلف للسلف الصالح. تلقى العلم وتربى عليه عدد من الأجيال».

فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي»
من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٦هـ

ترتيب الأستاذ: **عمار عزيز العثماني**

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
١	كلمة التحرير	الهجرة ..... من أعظم رموز التضحية والوفاء	التحرير	١-٢	٣
		ما أحوجنا إلى التأسي بالقدوة الأعظم	التحرير	٣	٣
		المستقبل للإسلام مهما	التحرير	٤	٣
		ظاهرة الإلحاد أدهى وأمرُّ	التحرير	٥	٣
		التدين أمر فطري في البشر	التحرير	٦	٣
		دجالون كذابون	التحرير	٧	٣
		ثلاث وثلاث	التحرير	٨	٣
		الصيام أعظم مولد للتقوى	التحرير	٩-١٠	٣
		أعجب رحلة في الحياة	التحرير	١١	٣
		من إيحاءات خطبة حجة الوداع	التحرير	١٢	٣
٢	كلمة العدد	الهجرة .... فوائد وعبر	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١-٢	٤-٨
		الصدق ركيزة العلاقات الاجتماعية النموذجية	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٣	٤-٨
		شباب الأمة بين مطرقة الإلحاد وسندان إهمال شرائع الدين	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤	٤-٨
		رقي المسلم منوط بصلاح دينه	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٥	٤-٨
		الإسلام دين البشرية جمعاء إلى يوم القيامة	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٦	٤-٨
		الخوف على الرزق من القطع أو الانتقاص	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٧	٤-٩
		الإسلام هو حامل لواء الحرية الحقيقية	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٨	٤-٩
		شهر رمضان فاتحة عام العبادات	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٩-١٠	٤-٨
		من سنة الله تعالى الابتلاء والاختبار	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١١	٤-٨
		الحج يهدم ما كان قبله	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١٢	٤-٨

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٣	الفكـــــــر الإسلامي من خلال التفسيـــر	من ظلال التفسير: سورة الأنعام: من الآية (١٠٤) إلى الآية: (١٢٢)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١-٢	٩-١٣
		من ظلال التفسير: سورة الأنعام: من الآية: (١٢٣) إلى الآية: (١٣٧)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٣	٩-١٣
		من ظلال التفسير: سورة الأنعام: من الآية: (١٣٨) إلى الآية: (١٤٩)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٤	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأنعام: من الآية: (١٥٠) إلى الآية: (١٦٠)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٥	٩-١٣
		من ظلال التفسير: سورة الأنعام: من الآية: (١٦١) إلى الآية: (٩) سورة الأعراف	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٦	٩-١٢
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٠) إلى الآية: (٢٤)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٧	١٠-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (٢٥) إلى الآية: (٣٤)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٨	١٠-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (٣٥) إلى الآية: (٤٦)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٩-١٠	٩-١٣
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (٤٧) إلى الآية: (٥٨)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١١	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (٥٩) إلى الآية: (٨٤)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١٢	٩-١٤
	الفكـــر الإسلامي	يظنون بأنه الحق	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	١-٢	١٤-١٨
		الزكاة كمية وقيمة	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	٣	١٤-١٨
		النظر المقاصدي في السيرة النبوية الشريفة	الأستاذ رشيد كهوس	٤	١٥-٢١
		أفي المال حق سوى الزكاة؟!	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	٦	١٣-٢٠
٤	دراسات إسلامية	الفطرة ..... والكون	الأستاذ البهي الخولي	١-٢	١٩-٣١
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	١-٢	٣٢-٣٦
		نظرات في أحكام تلاوة القرآن العظيم	الشيخ إبراهيم عطوة	١-٢	٣٧-٤٣

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٤	دراسات إسلامية	صور من الإعجاز البياني في سورة آل عمران	أبو عاصم المباركفوري	١-٢	٤٤-٥٩
		أقباس روحانية	د. محمد شيت خطاب	١-٢	٦٠-٦٤
		الطريق إلى الله	أ. مناع القطان	١-٢	٦٥-٦٩
		تحويل القبلة إلى الكعبة	د. محمد محمد أبو شهبة	١-٢	٧٠-٧٣
		هذا بصائر من ربكم	د. علي عبد المنعم عبد الحميد	١-٢	٧٤-٨٠
		اللباس... بين الآداب الإسلامية والعادات الغربية الوافدة	أ. د. ماهر عباس جلال	١-٢	٨١-٨٤
		البلاغة النبوية	د. صبحي الصالح	٣	١٩-٢٢
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٣	٢٣-٢٩
		الإمام أحمد بن حنبل يصارع المأمون والمعتصم في دعوتهما الأمة للقول بخلق القرآن	د. عبد الرحمن عميرة	٣	٣٠-٣١
		صور من الزهد	د. محمود شيت خطاب	٣	٣٢-٣٤
		هذا الدين	د. محمد سعيد رمضان البوطي	٣	٣٥-٤٠
		بدء الوحي	د. علي عبد المنعم عبد الحميد	٣	٤١-٤٥
		الإداري المسلم في هدي سلوك الرسول ﷺ وإدارته لشؤون الرعية	د. أحمد شوقي الفنجري	٣	٤٦-٥١
		القرآن معجزة الإسلام الخالدة	أ. محمد فريد وجدي	٤	٢٢-٢٤
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٤	٢٥-٢٩
		نسبة الإرجاء وقلة الحديث إلى الإمام أبي حنيفة وذم الغلو في التقليد وإطالة اللسان على المجتهدين	المربي الجليل العلامة أشرف على التهانوي تعريب: أ. أشرف عباس القاسمي	٤	٠٣-٣٧
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو عائض المباركفوري	٤	٣٨-٤٣
		في المولد النبوي الكريم	الشيخ عبد الفتاح القاضي	٤	٤٤-٤٦
		شهادة الأعداء بحق الإسلام وصاحبه عليه الصلاة والتسليم	أ. محمد حسان أنور القاسمي	٤	٤٧-٥٠
		صور من مواقف الجاحدين في المكابرة والإعراض	الشيخ عبد الغني مير غني	٤	٥١-٥٣
		الأخلاق الوضعية	أ. سعيد زايد	٥	١٤-١٨

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٥	١٩-٢٣
		شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين	الشيخ نديم الجسر	٥	٢٤-٣٠
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو عائض المباركفوري	٥	٣١-٣٦
		أهم الأسس التي يقوم عليها الإيمان بالله	أ. عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع	٥	٣٧-٤٠
		خالد بن صفوان بن الأهثم يعظ هشام بن عبد الملك	أ. خالد سيد علي	٥	٤١-٤٣
		الذين يسعون إلى الهلاك والدمار	د. عمر سليمان الأشقر	٥	٤٤-٤٧
		صور عنيفة لمواقف الكافرين من الدعوة والداعية	الشيخ عبد الغني مير غني	٥	٤٨-٥٣
		أحد العارفين يوصي المنصور في حجه	أ. خالد سيد علي	٦	٢١-٢٣
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٦	٢٤-٢٧
		رقابة الله هي الضمان ضد الطغيان	د. عمر سليمان الأشقر	٦	٢٨-٣١
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو عائض المباركفوري	٦	٣٢-٤٣
		الإمام الزاهد ذوالنورين (عثمان) رضي الله عنه	أ. محمود شيت خطاب	٦	٤٤-٤٦
		فضل الدعاء والأمر به، والحكمة منه	الشيخ أبوالفاتح محمد بن علي بن همام	٦	٤٧-٥٢
		أثر الإيمان في تطهير القلب من الران ودرن المعاصي	أ. عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع	٧	١٥-٢٠
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٧	٢١-٢٥
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو فايز المباركفوري	٧	٢٦-٣٨
		الإسلام دين وحدة وائتلاف	الشيخ محمد عبد الهادي	٧	٣٩-٤٣
		جبرئيل أول معلم للتجويد، ثبوت القراءات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتاريخها	الشيخ علي محمد الضباع	٧	٤٤-٤٧
		فتح المسلمين جزيرة «سردانية» وغرقهم في البحر	الشيخ الجليل المحقق حبيب الرحمن العثماني الديوبندي. تعريب: أ. محمد رضوان القاسمي	٧	٤٨-٥١
		سالم بن عبد الله يوصي عمر بن عبد العزيز	أ. خالد سيد علي	٧	٥٢-٥٣
		فضل ا لقرآن على سبيل الإجمال	الشيخ أبو الفضل عبد الله محمد الصديق	٨	١٥-١٧
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٨	١٨-٢٣

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٤	دراسات إسلامية	إدارة الصلاة	أ. أحمد بسام ساعي	٨	٢٤-٢٦
		الصفات والخصائص المطلوبة في القيادة الإسلامية	أ. محمد رضي الرحمن القاسمي	٨	٢٧-٣٣
		مراتب أهل الإيمان	أ. عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع	٨	٣٤-٣٦
		عالم يحاوردجاجلة البطائحية	د. عمر سليمان الأشقر	٨	٣٧-٤٠
		الشكيلية بدعة تهدد الشريعة الإسلامية	أبو فايز القاسمي المباركفوري	٨	٤١-٤٨
		إعجاز القرآن	فضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف بك	٨	٤٩-٥١
		الصوم المطلوب	أ. عبد الحميد الحجازي	٩-١٠	١٤-١٦
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٩-١٠	١٧-٢٤
		أبو حازم يعظ سليمان بن عبد الملك	أ. خالد سيد علي	٩-١٠	٢٥-٢٨
		دور اللغة العربية في فهم القرآن والسنة	أ. محمد يعقوب الأعظمي القاسمي	٩-١٠	٢٩-٣٨
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو فايز القاسمي المباركفوري	٩-١٠	٣٩-٤٤
		قضية الكلمات الأعجمية في القرآن الكريم في ضوء الدراسة والبحث	د. عبد العال سالم مكرم	٩-١٠	٤٥-٥٦
		فضل الذكر والأمر به	الشيخ أبو الفاتح محمد بن علي بن همام	٩-١٠	٥٧-٦٣
		تلك المصيبة أنست ما تقدمها	التحرير	٩-١٠	٦٤-٦٩
		قراءة في كتاب «أنوارالمحمود شرح سنن أبي داود»	الطالب/فضل الرحمن	٩-١٠	٧٠-٧١
		لمن يكون النصر من الله؟	الشيخ عبد الجليل عيسى	٩-١٠	٧٢-٧٦
		متعة الاستيقاظ للصلاة	أ. أحمد بسام ساعي	٩-١٠	٧٧-٨٤
		الإمام السمعاني ورحلته في طلب العلم	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	٩-١٠	٨٥-٩٤
		أدب الدرس وأدب النفس	أ. عبد الله عبد الغني خياط	١١	١٥-١٨
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	١١	١٩-٣١
		هو الذي خلقكم من نفس واحدة	أ. يوسف مصطفى الأمير	١١	٣٢-٣٤
		أثر الشمس في الكون	أ. أحمد الشرباصي	١١	٣٥-٣٧
		الشيخ العلامة قمر الدين الكوركفوري رحمه الله	أ. محمد أجمل القاسمي	١١	٣٨-٤٢
		العرف الذكي شرح جامع الترمذي	تعريف وعرض: أ. محمد ساجد القاسمي	١١	٤٣-٥٤
		تنوع الصلاة: المدرسة الحضاريّة الأولى	أ. أحمد بسام ساعي	١٢	١٥-٢١

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٤	دراسات إسلامية	من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند مقدمة الكتاب	حكيم الإسلام المقرئ الشيخ محمد طيبؒ تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	١٢	٢٢-٣٥
		هجر النوم والراحة والدعة	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	١٢	٣٦-٤٢
		قضية خلق القرآن بين صالح بن المنصور الهاشمي والمهتدي بالله أمير المؤمنين	د. عبد الرحمن عميرة	١٢	٤٣-٤٦
		الخشية من مظاهر الجبن	أ. عبد الله عبد الغني خياط	١٢	٤٧-٤٩
		الرقي في الخلق الحسن	فضيلة الشيخ عبد المطلب صلاح	١٢	٥٠-٥٢
٥	رحمة الله	ولمثله تبكي العيون وتهمع	التحرير	١-٢	٨٥-٩١
٦	فهرس مقالات	فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي» من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٥هـ	ترتيب: أ. عمار عزيز العثماني	١-٢	٩٢-٩٧
٧	استراحة القارئ	شذرات	أ. محمد فائز جميل القاسمي	٣	٥٢-٥٣
٨	أنباء الجامعة	دبلوماسي دنماركي يزور الجامعة	التحرير	٨	٥٢-٥٢
		قاضٍ من قضاة منطقة «أيته» بولاية أترابراديش يزور الجامعة	التحرير	١٢	٥٣-٥٣
٩	محليات	برامج لغوية عربية تشهدها مختلف المدارس الإسلامية	التحرير	٩-١٠	٩٥-٩٦
١٠	إشراقات	شعبية مجلوبة	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١-٢	٩٨-١٠٠
		أريد أن يدخل كل الناس الجنة إلا	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٣	٥٤-٥٦
		سر الراحة القلبية	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٤	٥٤-٥٦
		رب عمل عظيم القدر وإن قلّ وهان	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥	٥٤-٥٦
		العلماء متعنتون ومتشددون	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٦	٥٣-٥٦
		قصة أبكتني بكاء الثكلى	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٧	٥٤-٥٦
		نفسك أولاً	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٨	٥٣-٥٦
		اقتراف صغائر الذنوب يهوّن كبائرها	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٩-١٠	٩٧-١٠٠
		آمن القلب، ولما يؤمن العقل	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١١	٥٥-٥٦
		الناس على دين ملوكهم	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١٢	٥٤-٥٦

❊ ❊ ❊

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ١٠٠

فلما فرغوا منها استقبلوا أسئلةً أخرى عجزوا جميعًا عن الإجابة عنها، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، والمراقب في صالة الاختبار جالس على كرسيه في صوب منها، كأن على رأسه الطير، لا يلقي بالا لحديث الطلاب وهمستهم وهمهمتهم، ويتغلب عليه النوم كثيرًا فيغط فيه، حتى يلامس ذقنه صدره، وربما أخذه الشعور بالمسؤولية في فترات متباعدة، فيحرك رأسه، ويمسح النوم عن عينيه بيديه، وأما الطلاب فتمتد شكواهم صعوبة الأسئلة وعجزهم عن الإجابة عنها، و كثرت همساتهم وطالت نجواهم، فدخل عليهم شيخ طاعن السن، يشي محياه بأنه ذاق هذه الاختبارات حلوها ومرها، وحلب الدهر بأشطره، ونفذ إلى زوايا خباياها وخبايا زواياها، ومرِن على الإجابة عما شق وسهل من أسئلتها. فاشرأبَّت إليه الأعناقُ، واستشرفت إليه العيون، وطمحت إليه الأبصار، فتلألأ البشر في وجوههم الكاحلة، وسرت نشوة وفرحة في شرايينهم، كأنما تأخر أجلهم، أو نزل ملاك من السماء يبشرهم بدخول الجنة.

فدحرجوا للداخل كرسيًّا من الكراسي فارغًا في الصالة، فجلس عليه الشيخ كالمتطاول عليه إلى الطلاب، وتناول ورقة من أوراق الأسئلة من يد بعض الحضور، ونظر فيها نظرة استشف ما بداخلها، وما بظاهرها، وتساءل عن أجزاء الأسئلة التي شق عليهم الإجابة عنها، ثم قال: أفرغوا على أوراقكم ما أمليه عليكم، فشمر الطلاب عن ساق الجد، وأكبوا على أوارقهم والأقلام بأيديهم، لايدرون مما يملى عليهم ما قُبله وما دبره، ولا همَّ لهم إلا تحريك الأنامل على الأوراق، وتسويدها وتسويد صحائف أعمالهم بعون سخي من الشيخ المحنك حتى أتوا على آخر الأسئلة.

ونوع آخر من هذه الاختبارات يناقض ما سبق ذكره على طول الخط وعرضه، اختبارات كلها جد لا هزل فيها، وأمانة لا خيانة، وصرامة لا مساومة عليها، أيسر لفتة في صالة الاختبارات

تعتبر خيانةً وغشًّا، ومن غشنا فليس منا. شهد كاتب هذه السطور هذا النوع من الاختبارات في جامعات بعض الدول العربية الإسلامية خلال دراسته فيها. ومن الطرائف أنه ذات يوم كان يؤدي امتحانًا من امتحاناته وحوله طالب وافد من بعض الدول التي تعتبر استعانة بعض الطلاب الضعفاء بعضهم من بعض، ومعاونة المراقبين في القاعة نوعًا من التعاون على «البر»، بعد أن ينال الأخير ما يرغب فيه من «البخشش» الذي لايراعي فيه إلًّا وذمةً، ويتضاعف هذا التعاون على «الخير» مضاعفة البخشش الذي يناله. فما إن استلم هذا الطالب ورقة الأسئلة وأجال بصره فيها عن آخرها، حتى أدرك عجزه عن الإجابة عن بعض أجزاء السؤال. ومن عادة الطالب في مثل هذا البلد العربي أنه إن عجز عن الإجابة عن السؤال في الاختبار كلًّا أو بعضًا، سرعان ما يخرج من القاعة، دون أن تسول له نفسه أن يتبرع له جاره بشيء مما أفاض الله تعالى عليه وألقاه في قلبه ونفث في روعه؛ فإنه يرى ذلك غشًّا وخيانةً يحاسب عليها عند الله تعالى قبل أن يحاسب عليها في نظر القانون البشري. والغش في الاختبارات داء دبَّ إلى كثير من المجتمعات الدراسية في كثير من البلاد حتى الراقية منها. فكم نسمع في بعض البلاد من تسريب لجان الاختبارات فيها أسئلة الاختبارات في بعض المواد ذات الحساسية الزائدة، التي نيط بها في كثير من الأحيان مصير أوضاع الشعب الصحية أفرادًا وجماعاتٍ دون أن يردعها وازع ديني أو نداء ضمير أو سوط قانون.

وأما النوع الوسط بين طرفي النقيض فلا إخاله إلا عنقاء مغرب، قلما تجد له نظيرًا أو شبيهًا أو كباذل محض الود:

وباذل محض الود شيء سمعته
كما جاء في الأخبار عنقاء مغرب

و

تطلبت ودًّا لا يكون لعلة
فأعوزني وجدان ما أتطلب
وحاولت من يوفي بعهد فلم أجد
كأن الذي حاولت عنقاء مغرب

* * *

أنواع من الاختبارات

يمر المرء في حياته الدراسية بأنواع منوَّعة من الاختبارات والممتحنين. وبعض هذه الاختبارات هينة لينة وادعة ميسورة مختصرة موجزة مسها مس أرنب، والريح ريح زرنب. وبعضها وسط بين ذلك، لا حار ولا قار، لاصعب ولا سهل، أشبه بليل تهامة، لامخافة ولا سآمة. وبعضها شاقة عنيفة، صعبة الأداء، مخوفة الجانب، كأنه لحم جمل على رأس جبل، لا سهل فيرتقى ولاسمين فينتقل.

ولقد مر كاتب هذه السطور بدوره في مراحله الدراسية بأمثال هذه الاختبارات وهذا اللون من الامتحانات. ويحضرني - وأنا أكتب هذه السطور- ذكرى هذه الاختبارات، التي تؤهل حملة شهاداتها للعمل التدريسي في المدارس التابعة في بعض الحكومات المحلية، فقد دخلتُ ذات مرة صالة لأؤدي اختبارًا من هذه الاختبارات، واتخذت أنا والزملاء مقاعدهم المحددة من قبل لجنة الاختبارات، ثم وزعوا أوراق الأسئلة المقالية، فأخذ الطلاب يمعنون النظر فيها، ليبدؤوا بما سهل وهان من الأسئلة، وأخذوا يصبون ما في عقولهم وذاكراتهم من الأجوبة المناسبة عن هذه الأسئلة، ثم واجهوا بعض الأسئلة البعيدة عن متناول فهمهم وقدرتهم على الإجابة، فاجتمعوا على النقاش والتساؤل حول الإجابة، حتى استقر رأيهم على جواب بعينه، فصبوه على الأوراق، يستعين بعضهم ببعض على هذا «البر» و«التقوى»، لايخافون لومة رقابية أو وخز ضمير.

(البقية على ص٩٨)

أبو عائض القاسمي المباركفوري